

الفصل الثاني: رؤية الجاحظ في عصر بني أمية

أولاً: الأمويون ووصولهم للسلطة

ثانياً: التوريث الأسري (التسلسل التاريخي للدولة الأموية ٤١-١٣٢هـ / ٦٦١-٧٥٠م)

ثالثا: صورة الخلفاء الأمويين وسياستهم

أولاً: الأمويون ووصولهم للسلطة

إن التمعن في كتابات الجاحظ عن الدولة الأموية، يلمس صورتين متناقضتين. الأولى سلبية شن فيها حملة شعواء تجاه بني أمية وتاريخهم وطريقة وصولهم للسلطة. أما الصورة الثانية فجاءت مغايرة للأولى تجِده فيها يمدحهم ويثني على منجزاتهم، وهنا يقع القارئ في حيرة من أمره تجاه هذين الموقفين المتناقضين. فمن أجل إزالة اللبس وكشف الحقيقة لا بد من التتبع الزمني لهذه المواقف، وأثر الأوضاع السياسية والفكرية في هذا التغيير في موقف الجاحظ تجاه بني أمية، وأيضا الوقوف على أهداف الجاحظ المبطنة والخافية وراء ذلك.

يلاحظ الباحث أن الموقف السلبي الذي وقفه الجاحظ تجاه بني أمية يرتبط بصلته ببني العباس. ويمكن تحديد ذلك بعام ١٩٨هـ / ٨١٣م عندما حدث اتصال بين الجاحظ والمأمون في مرو وبالتالي بدأ الاتصال الفعلي والعملي بالسلطة العباسية[١]، هذا الاتصال يعد المنطلق الذي أخذ فيه الجاحظ موقفا مناوئا ومعارضا للدولة الأموية وأدى به إلى دخوله معترك السياسة[٢]، وقد بلغت حدة المعترك السياسي أن قامت الدولة العباسية بإعلان البراءة من معاوية[٣]، فكان على الجاحظ الذي صار قريبا من السلطة العباسية أن تتماشى مواقفه مع مواقفها، ومن جهة أخرى فإن هذه المرحلة تتسم بالتوافق التام بين المعتزلة والعباسيين. مما حدا بالجاحظ أن يكتب في القضايا التي أثيرت في فترة الخلفاء (المأمون، والمعتصم، والواثق) وخاصة تلك القضايا التي تتمثل في الإمامة، والبراءة من معاوية ومعاداة الأمويين، وتقريب العلويين، والقول بخلق القرآن[٤].

فحديث الجاحظ عن بني أمية خلال تلك الفترة يتسم بالتنقيص والتشنيع، ويلاحظ الباحث أن أسلوب الكتابة عنهم تتصف عباراته بالارتباك. وهو شيء غير معهود في كتاباته[٥]. ويعد كتاب الإمامة الذي أهداه الجاحظ إلى الخليفة المأمون عند زيارته له في مرو بداية

---

١ - ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ ٦، ص١٨٠. أبو الفداء، المختصر، جـ ١، ص١٦٧. بلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ص ٣٦٧.

٢ - الزويري، الإمامة، ص ٣٠

٣ - البغدادي، الفرق بين الفرق، ص ١٥٧. المقريزي، المواعظ والاعتبار، جـ ٣، ص ١٠٢. بلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ٣٩١. الزويري، الإمامة، ص ٣٠. هياجنه، الجاحظ مؤرخاً، ص٤٧

٤ - ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ ٦، ص١٨٠. أبو الفداء، المختصر، جـ ١، ص١٦٧. بلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ص ٣٦٧. الزويري، الإمامة، ص ٣٤، ص ٣٩.

٥ - فوزي، الجاحظ مؤرخاً، ص ٤٢٧

الموقف العدائي للأمويين[1]. فكانت الدولة العباسية بحاجة إلى مسوغ ومبرر لتوليهم الخلافة والوقوف في وجه التيارات التي ترى أنهم استولوا على الخلافة، وبالتالي كان الجاحظ أحد حملة لواء الدفاع عن العباسيين، وقد استمر موقفه هذا طوال عهد المأمون وكذلك المعتصم الذي سار على خطى سلفه وأيضا في عهد الخليفة الواثق[2].

إن تبدل موقف الجاحظ تجاه بني أمية المتمثل في ترك ذمهم، يعود إلى خلافة المتوكل سنة ٢٣٢هـ / ٨٤٦م الذي قام بسلسلة من الإجراءات كان من أهمها تقريب أهل السنة وترك مذهب الاعتزال[3]، وبالتالي عدم الدخول في مناظرات ومجادلات دينية وسياسية فيما يخص العلاقة ببني أمية[4]. وتمثل هذا الجانب في أن كتابات الجاحظ بدأت تأخذ صفة القبول والرضى، كما أطرى على بني أمية ومدح خلفاءهم وبلاغتهم وشجاعتهم[5].

إن مرحلة عدم التوافق بين الجاحظ وبين الخليفة المتوكل[6]، والتي تمخض عنها أن ترك بلاط الخلافة[7]، ساهمت في عودته إلى البصرة بعد إصابته بالفالج. وبالتالي تحرره من التبعات السياسية والدينية. كل ذلك أدى به إلى أن يكتب عن بني أمية متجردا من الأهواء والنزعات والميول الشخصية والعامة[8].

---

١ - ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ ٦، ص١٨٠. أبو الفداء، جـ ١، ص١٦٧. بلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ص ٣٦٧.

٢ - نوري، الجاحظ، ص ٦. هياجنه، الجاحظ مؤرخاً، ص ٢١. الزويري، الإمامة، مقدمة الرسالة ص (ط)، ص٣٢

٣ - ابن الجوزي، المنتظم، جـ ١١، ص ٢٠٦. الزويري، الإمامة، ص، ٢، ص ٣٦. انظر تعريف المعتزلة: الشذر، الفاظ الحضارة العباسية، ص ٢٠٢.

٤ - انظر الفصل الأول: الجاحظ وثقافته الموسوعية

٥ - تم التفصيل في الفصل الثالث حول أسباب تحول المتوكل.

٦ - الحموي، معجم الأدباء، جـ ٦،ص. ٧٢. نوري، الجاحظ، ص ١٤

٧ - الطبري، تاريخ، جـ ٩، ص١٧٩. نوري، الجاحظ، ص ١٤

٨ - الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ص٣٧٩. الدروبي، مرض الجاحظ، ص ٣٧٩-٣٨١. هياجنه، الجاحظ مؤرخا، ص ٧٥. - الزويري، الإمامة، ص ٢٠.

فبدأ منهجه متحررا، خاليا من الإشادة بالمعتزلة، إذ خلت عباراته من المنهج الكلامي، وهو منهج يعتمد على تقليب النص والمعنى[١]، وجعل العقل مقدما على النص[٢]، وسبب ذلك أنه لم يعد ينطلق من منطلقات سياسية بسبب إبعاد الدولة له، ولا منطلق معتزلي ديني بسبب الإجراءات التي اتخذها المتوكل ضدهم مما جعل مذهب المعتزلة ينزوي منذ تولي المتوكل الخلافة[٣].

والملاحظة الجديرة بالاعتبار أن مدح الجاحظ لبني أمية والثناء عليهم ورد في كتاب البيان والتبيين الذي فرغ منه بعد عام ٢٣٥هـ / ٨٤٩م[٤]. أي في الفترة التي لم تعد الدولة العباسية تناصب الأمويين العداء، فعلى الرغم من أن الكتاب لغوي وبلاغي وبياني، إلا أنه تناول موضوعات أخرى مثل الفرق والجماعات، كما اتصف بمعالجة قضايا سياسية ومن ضمنها بعض الجوانب التي تتعلق بالأمويين وما اتصفوا به من الصفات مما جعلهم مادة أساسية في الكتاب[٥].

أما الرسائل فتخلو من الثناء، ولكنها على العكس من ذلك تحتوى على التنقيص والتقليل، ويعود ذلك إلى الظرف السياسي الذي كتبت فيه، فأغلبها كتب في الفترة التي كانت السلطة العباسية مناوئة ومناهضة للأمويين، وهي الفترة الممتدة بين تولي المأمون الخلافة وحتى خلافة المتوكل[٦]، كما أنها كتبت لأهداف سياسية محددة، تتعلق بشكل عام حول تأييد خلافة العباسيين ومناصبة بني أمية العداء. أما الرسائل التي كتبها الجاحظ بعد تولي المتوكل الخلافة فقد كانت لأغراض وأهداف أخرى بعيدة عن قضية بني أمية فلم تتضمن روايات تتناول خلافتهم.

---

١ - مثال ذلك: أن الجاحظ يرفض فكرة النص التي تدعيها الشيعة الرافضة حول إمامة علي، إذ يرى أنه لا نص في القرآن أو الحديث يشير إلى إمامة أحد دون بقية المسلمين. الزويري، الإمامة، ص ٦ . انظر: الفصل الأول: منهج الجاحظ في الكتابة.

٢ - سرحان، هيثم. الحِجاج عند الجاحظ. المجلة العربية للعلوم الإنسانية، العدد١١٥، جامعة الكويت، الكويت: ٢٠١١م، ص ٥ (سيشار إليه فيما بعد: سرحان، الحِجاج عند الجاحظ). الزويري، الإمامة، ص ٥٧

٣ - الحموي، معجم الأدباء، جـ٦، ص ٧٤. الزويري، الإمامة، ص ٣٦.

٤ - انظر: مقدمة الدراسة: كتاب البيان والتبيين. الدروبي، آثار الجاحظ، ص ٧٤

٥ - راجع مقدمة الدراسة: كتاب البيان والتبيين

٦ - إن موقف الجاحظ المعارض لبني أمية يتمثل في ثلاث رسائل هي: الحكمين، والنابتة، وفضل هاشم على عبد شمس، وهذه الرسائل كتبت قبل عام ٢٣٢هـ / ٨٤٦م. انظر على التوالي: الدروبي، آثار الجاحظ، ص٨٢، ص ١٢٥، ص ١٦٣.

مما سبق يتضح للباحث أن منهج الجاحظ في الكتابة كان يعتمد على الحالة السياسية وانعكاسها على حياته، فعلى الرغم من تأكيده على صفة الحياد التي ينبغي على الكاتب الالتزام بها إلا أن ذلك لم يظهر بشكل خاص في موقفه من بني أمية **"واعلم أن واضع الكتاب لا يكون بين الخصوم عدلا، ولأهل النظر مألفا، حتى يبلغ من شدة الاستقصاء لخصمه مثل الذي يبلغ لنفسه، حتى لو لم يقرأ القارئ من كتابه إلا مقالة خصمه لخيل له أنه الذي اجتباه لنفسه، واختاره لدينه"**[1] ويقول في رسالة الحكمين: **"ولسنا ممن يميل في شق عن شق ويتعصب لبعض على بعض ومن يبخس حق الدون، فكأنك به قد تبخس حق من فوقه حتى تصير إلى أئمته المهتدين وخلفائه الراشدين؛ لست عمريا دون أن أكون علويا ولا علويا دون أن أكون عثمانيا، اللهم إلا بما أخص به العترة بسبب القرابة، وأما في غير ذلك فليس شأني إلا محبة الجميع والتوفير على الكل ودفع الظلامة عن الكبير والضعيف على قدر ما شاهدنا عليه من الحالات"**[2]. فمال الجاحظ في كتاباته نحو العباسيين وتنقص من الدولة الأموية ومن خلفائها.

وعند العودة للحديث عن موقف الجاحظ السلبي في تناوله لتاريخ بني أمية، سنجد واضحاً من خلال ما كتبه من رسائل تعبّر بوضوح عن رغبة كانت تبديها السلطة العباسية. فقد كتب العديد من الرسائل ومن ضمنها رسالة الحكمين في قضية الخلاف بين علي ومعاوية لأهداف سياسية تصب في خدمة الدولة العباسية، والمتمثلة في محاولة كسب تأييد الناس لشرعية خلافتهم والتشنيع على الأمويين[3]، وتسويغ حق العباسيين في الخلافة[4]، إذ تمثل هذه الفترة حرجا سياسيا بالنسبة للدولة العباسية، فظهرت أصوات تعلن أن العباسيين استولوا على الخلافة من مستحقيها العلويين[5].

---

١ ـ الجاحظ، العثمانية، ص ٢٥٤

٢ ـ الجاحظ، رسالة الحكمين، ص ٣٦٩

٣ ـ بلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ٣٩١ . الزويري، الإمامة، ص ٣٠. هياجنه، الجاحظ مؤرخاً، ص٤٧.

٤ ـ البغدادي، الفرق بين الفرق، ص ١٥٧. المقريزي، المواعظ والاعتبار، جـ ٣، ص ١٠٢. بلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ٣٩١. الزويري، الإمامة، ص ٣٠. هياجنه، الجاحظ مؤرخاً، ص٤٧

٥ ـ تعود مسألة الخصام حول الخلافة منذ عهد الخليفة أبو جعفر المنصور الذي تبادل الرسل مع محمد النفس الزكية حول اغتصاب العباسيين للخلافة. انظر: البلاذري، أنساب الأشراف، جـ ٣، ص ٩٥-٩٨. الدينوري، الأخبار الطوال، ص ٣٨٥. ابن خلدون، عبد الرحمن(ت: ٨٠٨هـ/ ١٤٠٦م). تاريخ ابن خلدون المسمى كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ط ١، دار الكتاب العلمية، بيروت: ١٩٩٢م، جـ ١، ص ١٦(سيشار إليه فيما بعد: ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون). ابن الطقطقي، محمد بن علي بن طباطبا (ت: ٧٠٩هـ / ١٣٠٩م). الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، تحقيق عبد القادر محمد مايو، دار القلم العربي، بيروت: ١٩٩٧م، ص٣٥-٣٦ (سيشار إليه فيما بعد: ابن الطقطقي، الفخري).

قام الخلفاء العباسيون إثر ذلك بتقريب العلويين مظهرين الود والعطف عليهم، مثل ما قام به المأمون من الميل نحو العلويين[1] والإحسان إليهم "أما رأيت المأمون ورفقه بهم، وعفوه عنهم، وميله إليهم"[2]، كما أن السلطة العباسية وظفت الأدباء والشعراء من أجل ذلك[3]. فكان إعلان المأمون تفضيل علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) بمثابة تصريح عام لانتقاد الأمويين، وفي نفس الوقت إبراز مزايا آل البيت والعباسيين[4].

كما أن معالجات الجاحظ لمسألة وصول بني أمية للخلافة تعبر كذلك عن موقف المعتزلة المعادي للأمويين[5]. فتحدث الجاحظ في رسالة الحكمين عن كيفية وصول الأمويين للخلافة، وأكد على دور الحكمين في إيصال معاوية للخلافة "**زعمت أن كُتّاب القضية**[6] **في الحكمين يثبت للخوارج**[7] **حجتهم وأن لفظه يمتنع فيه التوجيه والتورية** "[8] وحجة الخوارج أن لا حكم إلا لله[9] والتي من أجلها فارقوا علي واعتزلوه[10]، فقصد الجاحظ التعريض بالأمويين في مسألة رفع

---

١ - قام المأمون في سنة ٢٠١هـ / ٨١٦م عندما كان في خراسان بتعيين علي بن موسى الرضا ولي عهده، فلم علم أهل بغداد بذلك، قاموا بعزله وتنصيب إبراهيم المهدي خليفة. مما اضطر المأمون إلى التوجه إلى بغداد، والتخلي عن لبس الخضرة والعودة إلى السواد. ابن خياط، تاريخ، ص٤٧١. اليعقوبي، تاريخ، ص ٢٩٣-٢٩٦. ابن مسكويه، تجارب الأمم، جـ ٤، ص ١٣٤-١٤١. ابن الجوزي، المنتظم، جـ ١٠، ص٩٤، ص١٠٧.

٢ - ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـ ٣، ص ٢١١. جـ ٣، ص ١٨٤. جـ ٤، ص ٧.

٣ - بلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ص٣٩١ . الدروبي، آثار الجاحظ، ص ٨٢. الزويري، الإمامة، ص ٣٠. هياجنه، الجاحظ مؤرخاً، ص٤٧.

٤ - الطبري، تاريخ الطبري، جـ ٥، ص ١٧٧، ص١٧٨. بلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ص٣٩١ . هياجنه، الجاحظ مؤرخاً، ص٤٧ الزويري، الإمامة، ص ٨، ص ٣٨ .

٥ - الدروبي آثار الجاحظ، ص ٨٢. الزويري، الإمامة، ص ٣٨.

٦- كتاب القضية هو نص الاتفاق على التحكيم بين علي ومعاوية. عالج الجاحظ النص وحلله فوجده مزورا لفظا ومعنى أو شكلا ومضمونا. انظر: الجاحظ، رسالة الحكمين، ص ٣٣٩

٧- لفظ الخوارج أطلق على من خرج عن علي بن أبي طالب وصحبه؛ لأنه قبل بالتحكيم ، وكان شعارهم: "لا حكم إلا لله"، ويسمون أيضًا بالحرورية نسبة إلى قرية في الكوفة تسمى "حروراء" خرجوا إليها، وقد حاربهم أمير المؤمنين علي رضي الله عنه في الوقعة الشهيرة بوقعة "النهروان" وهزمهم، وقتل منهم كثيرًا،، حتى دبروا له مكيدة قتله على يد عبد الرحمن بن ملجم. وقد حارب الخوارج الدولة الأموية في حروب متواصلة؛ بحجة أنها مغتصبة الخلافة بزعمهم، ولكنها استطاعت أن تنهك قواهم، غير أنها لم تستطع استئصالهم. ابن العربي، محمد بن علي(٥٤٣هـ / ١١٤٨م). العواصم من القواصم، تحقيق عمر طالبي، ط ١، دار الثقافة، الدوحة: ١٩٩٢م، ص ١٧١ (سيشار إليه فيما بعد: ابن العربي، العواصم). ابن الطقطقي، الفخري، ص٩٩.

٨- الجاحظ، رسالة الحكمين، ص ٣٧١

٩ - عندما وقع التحكيم ورجع علي من صفين رجعوا مباينين له فلما انتهوا إلى النهر أقاموا به فدخل الكوفة ونزلوا بحروراء فبعث إليهم عبدالله بن عباس فرجع ولم يصنع شيئا فخرج إليهم علي فكلمهم حتى وقع الرضا بينه وبينهم فدخلوا الكوفة فأتاه رجل فقال إن الناس قد تحدثوا عنك رجعت لهم عن كفرك فخطب الناس في صلاة الظهر فذكر أمرهم فعابه فوثبوا من نواحي المسجد يقولون لا حكم إلا لله. الطبري، تاريخ الطبري، جـ٣، ص ١١٤.

١٠ - البلاذري، أنساب الأشراف، جـ ٧، ص ١٤٣.

المصاحف. أما أمر التحكيم[1] فيرى الجاحظ أنه كان صعباً وشاقاً أن يحكم بين طائفتين اقتتلا هذا القتال الشديد فترة كبيرة، ووافق علي على التحكيم بعد أن رأى إصرار العوام في هذه القضية[2]. والتقى أبو موسى الأشعري[3]، وعمرو بن العاص وبدءا يفكران في كيفية إيجاد حلٍ لهذه المعضلة التي ألمت بالمسلمين، فاتفقا ابتداءً على كتابة كتابٍ مبدئي يضعا فيه أسس التحكيم[4].

يُفند الجاحظ ما جاء في كتاب التحكيم بقوله: " **وأنا أقول- حفظك الله- أن كتاب القضية كتاب مدخول**[5] "[6] فرمى الجاحظ هذه التهمة على الكتاب حتى ينفي صحة الكتاب، ويعلل سبب الشك فيه " **فإن كان كتاب القضية إنما دعا الحكمين إلى هذا الجنس من النظر، فليس لمعاوية فيه درك، ولا متعلق ولا طمع، وإن كان على غير هذا الوجه فخبرني ما هو وما شكله وأي صورة هو**"[7]. فالرواية كما يقول الجاحظ تخلو من الفصاحة ويشيع فيها اللحن مما يدل على أنها من كلام المولدين، والشهود كذلك مشكوك في نسبهم وفي أسمائهم. ثم أن رواية الجاحظ تنفي كون معاوية كان طامعا في الخلافة وقد خرج من الشام إلى صفين لقتال علي، مما يدل على ضعف الرواية[8].

ويرى الجاحظ أن الدهاء الذي كان عليه معاوية ما كان ليخفى على علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) المعروف بفطنته، لكن تبرير ما حدث يكمن في "**إن الرجل الذي يحارب ولا يستعمل إلا ما يحل له أقل مذاهب في وجوه الحيل والتدبير من الرجل الذي يستعمل ما يحل وما لا يحل**"[9].

---

١ - بعد التحكيم تباغض القوم جميعا وأقبلوا يتبرأ الأخ من أخيه، والابن من أبيه، وأمر علي بالرحيل، لعلمه باختلاف الكلمة، وتفاوت الرأي، وعدم النظام لأمورهم، وما لحقه من الخلاف منهم، وكثر التحكيم في جيش أهل العراق، ولحق معاوية بدمشق من أرض الشام، وفرق عساكره فلحق كل جند منهم ببلده. المسعودي، مروج الذهب، جـ ١، ص ٣٣٢.

٢ - قيل لعلي: إن الأشتر لم يرض بالصحيفة، ولم ير إلا قتال القوم. فقال: ولا أنا والله رضيت ولكن لن يصلح الرجوع بعد الكتاب. البلاذري، أنساب الأشراف، جـ ٢، ص ٣٣٦.

٣ - قال أبو موسى الأشعري إن الفتن لم تزل في بني إسرائيل حتى بعثوا الحكمين يحكمان بحكم لا يرضى به من اتبعهما وإن هذه الأمة لا تزال بها الفتن ترفعها وتخفضها حتى يبعثوا حكمين يحكمان بما لا يرضى به من اتبعهما، فقال له سويد بن غفلة: إياك - إن أدركت ذلك الزمان أن تكون أحد الحكمين، قال: أنا؟ قال: نعم أنت، قال: فكان يخلع قميصه ويقول: لا جعل الله لي إذا في السماء مصعدا، ولا في الأرض مقعدا، فلقيه سويد بن غفلة بعد ذلك فقال: يا أبا موسى، أتذكر مقالتك؟ قال: سل ربك العافية. المسعودي، مروج الذهب، جـ ١، ص ٣٣٠.

٤ - العسكري، الأوائل، ص١١٤. ابن كثير، البداية والنهاية، جـ ٢، ص٢٦٣. جـ ٦، ص ٢٤١.

٥ - ما داخل الإنسان من فساد في عقل أو جسم. لسان العرب، جـ ١١، ص ٢٤١.

٦- الجاحظ، رسالة الحكمين، ص ٣٧٢

٧- المصدر نفسه، ص ٣٧٤

٨ - رسالة الحكمين، ص ٣٧٢ . انظر: الجاحظ، مقدمة الرسائل السياسية، ص ٢٩.

٩- الجاحظ، رسالة فضل هاشم، ص ٤٤٦.

فصور معاوية بصورة المراوغ والمخادع ولم يكن بتلك الصورة هو، فلم يفهم العوام تدبير علي عندما أحكم معاوية عليه " فلمّا ابصرت العوام- حفظك الله- بوادر معاوية في المكايد ومثابرة غوايته في الخدع وكثرة ما اتفق له وتهيأ على يده، ولم يروا مثل ذلك من عليّ، ظنّوا بقصور رأيهم وقلّة عقولهم أنّ ذلك من رجحان عند معاوية ونقصان عند عليّ"[1]. ويعلل الجاحظ بأن الكذاب ليس لكذبه غاية ولا لما يولد ويصنع نهاية والصدوق إنما يحدث عن شيء معروف ومعنى محدود[2]. فجعل معاوية على هيئة المخادع صاحب المكر وهو مما لم يعهد عنه.

إن الجاحظ الذي يعارض الأمويين في مسألة الخلافة، ويرى أنهم لا يستحقونها، لأن شروط الخلافة لا تنطبق عليهم. عرض العديد من الروايات التاريخية في مسألة وصولهم للخلافة، مؤكدا وقبل كل شيء أنه لا يريد أن يبخس بني أمية وعلى رأسهم معاوية خصاله كونه من كتاب الوحي وتولية عمر- رضي الله عنه- إياه أرباع الشام[3]، وتثبيت عثمان - رضي الله عنه - له ولاية الشام[4]، وتزكيته في حسن تدبيره الأمور من العقل والحلم والدهاء والفهم والحزم والبيان، وليؤكد ذلك أورد قدر معاوية في بني أمية " هند بنت عتبة[5]، حين أتاها نعي يزيد بن أبي سفيان، فقال لها بعض المعزين: إنا لنرجو أن يكون معاوية خلف من يزيد، فقالت هند: ومثل معاوية لا يكون خلفا من أحد، فو الله إن لو جمعت العرب من أقطارها ثم رمي به فيها، لخرج من أي أعراضها

١ - الجاحظ، رسالة الحكمين، ص ٣٦٦. الزويري، الإمامة، ص ٧٦

٢ - الجاحظ، رسالة فضل هاشم، ص ٤٤٦. انظر: الجاحظ، مقدمة الرسائل السياسية ، ص ٣١.

٣ - هذا رد الجاحظ حول مسألة التحكيم، وفيها يشير أن عمر لم يجمع له أرباع الشامات. فقد كانت الشام مقسمة إلى أربعة أرباع، وجرت العادة منذ عهد أبي بكر الصديق أن يولى كل والي ربعاً من أرباع الشام. مثل ما قام به أبو بكر الذي ولى يزيد بن أبي سفيان ربعاً واحدا من أرباع الشام. الجاحظ، رسالة الحكمين، ص٣٣٤. المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد (ت: ٢٨٥هـ / ٨٩٨م). الكامل في اللغة، تعليق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت: ٢٠٠٨م، جـ ١، ص ٢٦ (سيشار إليه فيما بعد: المبرد، الكامل في اللغة). ابن عساكر، تاريخ دمشق، جـ ٦٥، ص ٢٤٩.

وقد كان الشام مقسما إلى أربعة أرباع: دمشق وحمص والأردن وفلسطين، وقد أشار الطبري إلى مروان بن الحكم الذي جعل أهل كل ربع يختارون واليهم "نهض معاوية بن يزيد بن الحصين ورؤوس أهل حمص فأمرهم أن يختاروا لولاية أجنادهم". الطبري، تاريخ الطبري، جـ ٤، ص ٢٨٠.

٤ - البلاذري، أنساب الأشراف، جـ ٢، ص ٢٠٩.

٥ - هند بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف(ت: ١٤ هـ/ ٦٣٥ م) وقفت في وقعة أحد ومعها بعض النسوة، يمثلن بقتلى المسلمين، ثم كانت ممن أهدر النبي صلى الله عليه وسلم دماءهم، يوم فتح مكة، وأمر بقتلهم ولو وجدوا تحت أستار الكعبة، فجاءته مع بعض النسوة في الابطح، فأعلنت إسلامها، ورحب بها. وأخذ البيعة عليهن. انظر: اليعقوبي، تاريخ، ص ١٢٢، ١٩٤. الطبري، تاريخ، جـ ٢، ص ٥٩، ٦٤، ٧٠. الصفدي، الوافي بالوفيات، جـ ٤، ص ٤٦٣. الذهبي، سير أعلام النبلاء، جـ ١، ص ١٦٥.

شاء"[1]. فقد كان شأن معاوية عند بني أمية كبير قبل أن يتولى الخلافة إذ أنه أحد كتاب النبي صلى الله عليه وسلم إلى القبائل يدعوهم فيها إلى الإسلام[2].

سار معاوية مع التيار الذي يوصله للخلافة أما مسألة نصرة معاوية لعثمان بن عفان - رضي الله عنه - فالجاحظ نفى قول معاوية الذي يزعم فيه أنه ينصر عثمان - رضي الله عنه - . واليعقوبي أكد ذلك بقوله: " **فكتب إلى معاوية يسأل تعجيل القدوم عليه، فتوجه إليه في اثني عشر ألفاً، ثم قال :كونوا بمكانكم في أوائل الشام، حتى آتي أمير المؤمنين لأعرف صحة أمره، فأتى عثمان، فسأله عن المدة، فقال :قد قدمت لأعرف رأيك وأعود إليهم فأجيئكم بهم .قال :لا والله، ولكنك أردت أن أقتل فتقول :أنا ولي الثأر[3] .ارجع، فجئني بالناس فرجع، فلم يعد إليه حتى قتل**"[4]. وإن كان اليعقوبي تفرد بهذه الرواية إلا أن ما ورد عند البلاذري يشير إلى أن معاوية وعد عثمان - رضي الله عنه - بالنصرة لكنه لم ينصره حتى قتل[5]. ونجد في الروايات نوع من التضارب بين رغبة في نصرته وأخرى أنه لم ينصره، خاصة إذا علمنا أن حصار منزل عثمان لم يتجاوز الأسبوعين، وتجهيز جيش في بلاد الشام وخروجه نحو المدينة يستغرق ما لا يقل عن الشهرين.

يرى الجاحظ أن معاوية استغل موقف سعد بن أبي وقاص[6] وعبد الله بن عمر بن الخطاب- رضي الله عنهم- الناهي عن القتال لصالحه[7] " **وأن أولى الناس بمقام الإمام من انتدب للطلب بدمه وبذل في ذلك نفسه لأخذ الحق منه لولده وولي دمه، فلما فرغ من ذلك وهمهم وثبتت عندهم أن**

١- الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ١، ص ٦٨

٢- اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ص ٢١٢.

٣ - تمسك معاوية بحقة في المطالبة بدم عثمان ونشر قميصه على منبر جامع دمشق، الطبري، تاريخ الطبري، جـ ٣، ص ٤. العش، يوسف. الدولة الأموية والأحداث التي سبقتها ومهدت لها، ط٢، دار الفكر، دمشق: ١٩٨٥م، ص ١٠١ (سيشار إليه فيما بعد: العش، الدولة الأموية).

٤- اليعقوبي، تاريخ، ص ٢٧١.

٥ - أرسل يزيد بن معاوية إلى عبد الله بن العباس يثني عليه لعدم مبايعته ابن الزبير، فرد عليه عبد الله بن العباس برسالة طويلة ومما جاء فيها تشنيعه على والده الذي تربص به وأبطأ عنه بنصره وحبس من قبله عنه حين استصرخه واستغاث به ثم بعث الرجال إليه معذرا حين علم أنهم لا يدركونه حتى يهلك. كما وردت رواية أخرى أن محمد بن أبي بكر دخل على عثمان يعاتبه فيما نفعه معاوية بعد حصاره وبعد أن وعده معاوية بالنصرة ولم ينصره. البلاذري، أنساب الأشراف، جـ ٥، ص٣٠٦، ٥٨١، ٥٨٥.

٦ - كتب معاوية إلى سعد بن أبي وقاص: إن أحق الناس بنصر عثمان أهل الشورى من قريش، الذين أثبتوا حقه، واختاروه على غيره، وقد نصره طلحة والزبير، وهما شريكاك في الأمر ونظيراك في الإسلام، وخفت لذلك أم المؤمنين، ولا تكرهن ما رضوا، ولا تردن ما قبلوا! فكتب إليه سعد: أما بعد، فإن عمر لم يدخل في الشورى إلا من تحل له الخلافة، فلم يكن أحد منا أحق بها من صاحبه إلا باجتماعنا عليه، غير أن علياً قد كان فيه ما فينا، ولم يكن فينا ما فيه، وأما طلحة والزبير فلو لزما بيوتهما كان خيراً لهما، والله يغفر لأم المؤمنين. اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ص ١٨١

٧ - في سنة ثمان وثلاثين قاتل علي أهل النهروان، وقعد عن بيعته جماعة عثمانية لم يروا إلا الخروج عن الأمر: منهم سعد بن أبي وقاص، وعبد الله بن عمر. المسعودي، مروج الذهب، جـ ١، ص ٣١٤.

من دان بدين سعد وذهب مذهب ابن عمر[1] ممن لا يرى قتال الفئة الباغية ويقول: كن عبد الله المقتول"[2]. فمعاوية المطالب بدم عثمان - رضي الله عنه - هو الأحق بالخلافة حسب ما يرى الأمويين، وهذه الشرعية التي انطلق منها معاوية في تبرير موقفه من علي. كما أنه لم يخرج لقتال ولم يبدأ حرباً فهو المقدم على غيره من الناس ويعني أنه مقدم على علي في الخلافة لقعوده عن الحرب[3]. لكن اعتراض الجاحظ عليه لاعتماده البطش والقوة في الوصول للخلافة، وأنه فرق كلمة المسلمين، بسبب الاعتراض على خلافة علي وتفريق المسلمين بعد أن أمر أصحابه برفع المصاحف مطالبا بأن يكون القرآن الكريم هو الحكم[4].

والجاحظ لا يبدي تعجبا من موقف معاوية المطالب بدم عثمان - رضي الله عنه -[5] فقد سبقه طلحة والزبير إلى المطالبة بدمه "**كيف تتعجب من معاوية وجنده وكيف لا يطالب معاوية عليّا بدم عثمان بأهل الشام إذ كان طلحة والزّبير يطالبان عليّا بدمه، وأصحاب طلحة والزبير يوم الجمل هم فتحوا هذا الباب لأصحاب معاوية يوم صفين**"[6]. وقد أقحم الجاحظ طلحة والزبير في الحديث بهدف تفنيد حجة معاوية. كما يرى الجاحظ أن عليا كان حريصا على حقن دماء المسلمين، لكنه لم يستوعب موقف سعد الذي سعى لجعل الخلافة في عبدالله بن عمر بن الخطاب[7].

---

١ - لم يرغب عبد الله بن عمر منذ وقعة الجمل الخروج مع علي، بعد أن رأى الانقسام الحاصل بين المسلمين، وأثر اعتزال الحرب فقد كان كما يصفه الدينوري رجلاً قد وقذته العبادة. كما لقي ابن الزبير وطلحة وهما خارجان إلى البصرة فرد عليهم إني امرؤ من أهل المدينة فإن يجتمعوا على النهوض أنهض وإن يجتمعوا على القعود أقعد فتركاه، مما عين اعتزاله الفتنة. انظر: التميمي، سيف بن عمر(ت:٢٠٠هـ / ٨١٥م). الفتنة ووقعة الجمل، تحقيق أحمد راتب عرموش، ط ٧، دار النفائس، بيروت: ١٩٩٣م، ص١١٨ (سيشار إليه فيما بعد: التميمي، الفتنة) .الدينوري، الأخبار الطوال، ص٢٢٦. العش، الدولة الأموية، ص ٨٦

٢- الجاحظ، رسالة الحكمين، ص٣٤٦.

٣ - عندما اجتمع الحكمان، قال عمرو بن العاص لأبي موسى ألست تعلم أن عثمان قتل مظلوما، قال: أشهد، قال: ألست تعلم أن معاوية وآل معاوية أولياؤه، فقال: بلى، فقرأ عليه الآية "ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا". الطبري، جـ ٣، ص١١١، العش، الدولة الأموية، ص ١٠٥.

٤ - اجتمع أهل العراق وأهل الشام وأتوا بكاتب، وقالوا: اكتب هذا ما تقاضى عليه أمير المؤمنين. فقال معاوية بئس الرجل انا إن أقررت بأنه أمير المؤمنين ثم أقاتله. قال عمرو بل اكتب اسمه واسم ابيه. فقال الأحنف بن قيس: يا أمير المؤمنين، لا تمح اسم إمرة المؤمنين، فإني اخاف ان محوتها لم ترجع إليك ابدا، ولا تجبهم إلى ذلك. فقال علي: الله اكبر، سنه بسنه، اما والله لقد جرى على يدي نظير هذا يعنى القضية يوم الحديبية، وامتناع قريش ان يكتب محمد رسول الله، فقال النبي صلى الله عليه وسلم للكاتب، اكتب محمد بن عبد الله. الدينوري، الأخبار الطوال، ص ١٩٤. العش، الدولة الأموية، ص ١٠٨. الزويري، الإمامة، ص ٨.

٥ - رد معاوية على رسالة علي بكتاب خال من الكتابة، في إشارة إلى رغبة معاوية في الثأر من قتلة عثمان، وعدم إجابته مبعوث علي بن أبي طالب. البلاذري، أنساب الأشراف، جـ ٢، ض ٢١٢. العش، الدولة الأموية، ص ٨٥.

٦ - الجاحظ، رسالة الحكمين، ص ٣٧٩.

٧ - الجاحظ، رسالة الحكمين، ص ٣٤٦- ٣٧٤. كما أشار الدينوري أن أبا موسى هو الذي كان هواه في الخلافة نحو عبد الله بن عمرو بن الخطاب، مما يعني أن هوى سعد توافق مع هوى أبي موسى في صرف

ويقول في نفس الموضع :" مما تهيأ له من الأسباب واتفق له من العلل ما كان ظاهرا من رأي سعد وابن عمر في تحريم البسط والأمر بالكف والنهي عن حمل السلاح والإمكان من الحربة: فاجتمع له السبب الذي به يوهم موضع دم عثمان "[1]. لما اجتمع الرأي من طلحة والزبير وأم المؤمنين عائشة – رضي الله عنهم أجمعين- ومن بمكة من المسلمين على السير إلى البصرة والانتصار من قتلة عثمان - رضي الله عنه - خرج الزبير وطلحة حتى لقيا ابن عمر ودعواه إلى الخروج فقال: "إني امرؤ من أهل المدينة فإن يجتمعوا على النهوض أنهض وإن يجتمعوا على القعود اقعد فتركاه ورجعا"[2] وهذا ما استغله معاوية في تحريض الناس على الكف عن مساعدة علي في الحرب.

حلل الجاحظ أسباب نجاح معاوية في مسعاه للوصول إلى الحكم، وفي الوقت نفسه خسران علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - فحددها بطبيعة تكوين أتباع كل منهما ومناصريه. فقد استفاد معاوية من تماسك جنده وتضعضع جند علي، إذ واجه علي مأزقاً حينما حارب في معركة الجمل التي خلقت اضطرابا في عقول كبار المسلمين[3]، وكذلك في معركة صفين، إذ اشترطت عليه القبائل المحاربة أن لا تحارب إلا رجال قبيلتها الذين يكونون ضده، وهكذا فعلت بقية القبائل وذلك للعصبية القبلية؛ فهم لا يستطيعون رؤية قبيلة غريبة تفتك بإخوانهم من قبيلتهم، وهم ينادون بشعار العصبية، شعار القبيلة. أما هم فإن قاتلوا إخوانهم من قبيلتهم، فإن قتالهم هذا يختلف عن قتال الإخوة حين يقتتلون قتالًا قد يكون أشد ضراوة من قتال الغرباء، لا يلتفت فيه إلى وجود دم واحد بين المتقاتلين، وإلى أنهم من بيت أب وأم، يحتم عليهم التكتل والتعصب، إذ لا غريب هنا أمامهم في هذا القتال[4].

الخلافة عن علي وجعلها في عبد الله بن عمرو بن الخطاب. الدينوري، الأخبار الطوال، ص ١٩٨. الزويري، الإمامة، ص٩

١- الجاحظ، رسالة الحكمين، ص٣٤٧

٢ - التميمي، الفتنة، ص٩١. ابن أعثم الكوفي، أبي محمد أحمد (ت: ٣١٤هـ / ٩٢٦م). الفتوح، تحقيق علي شيري، ط١، دار الأضواء، لبنان: ١٩٩١م، جـ ٢، ص٤٥١ (سيشار إليه فيما بعد: ابن أعثم الكوفي، الفتوح). وما يليها. الطبري، تاريخ، جـ ٣، ص١٣.

٣ - بلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ص ٢٥٩

٤ - سأل علي بن أبي طالب عن القبائل من أهل الشام، فعرف مواقفهم، فقال للأزد: اكفونا الأزد، وقال لخثعم: اكفونا خثعم، وأمر كل قبيلة أن تكفيه أختها من الشام، إلا أن تكون قبيلة ليس منها أحدٌ فيصرفها إلى قبيلة أخرى ليس بالعراق منهم أحد. ابن الأثير، الكامل، جـ ٢، ص ٦٥. النويري، نهاية الأرب في فنون العرب، جـ٥، ص ٣٥٣.

وقد علل الجاحظ تضعضع جند علي لأنهم من النزارية[1] أصحاب الأحقاد والعداوات القبلية الجاهلية "**ثم اتفق أن جنده يمانية إلا القليل، وجند علي نزارية إلا القليل**"[2] أما الشق الآخر من أتباع علي فهم من أهل العراق "**أصحاب الخواطر والنظر والتأويل والقياس، ومع هذه الصفة يكون الاختلاف إذ كانوا عربا وأعرابا وعهدهم بالجاهلية قريب وتعظيم الرؤساء فيهم غير قديم**"[3] وعلى عكس هؤلاء كان جند الشام "**في قلة الخواطر والتنقير وفي قلة الفطنة والتفتيش على خلاف ذلك؛ وكانوا ملوكا وأجناد ملوك أو قرابين ملوك، لا يعرفون إلا طاعة الملوك والكبراء واتباع الرؤساء**"[4]. فغالبية جند معاوية من اليمانية الذين عاش في كنفهم منذ توليه ولاية الشام في عهد عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- [5]، حيث يشير الجاحظ أن أهل الشام عاشوا قبل الإسلام في ظل سيادة الملك والحاكم الذي له السمع والطاعة، حيث كانوا متحضرين ألفوا الحكم وطرائق الروم[6]. أما جند علي فعهدهم بالإسلام قريب، وطاعة الخليفة فيهم شيء حديث[7].

أوضح الجاحظ الدور الذي لعبه عمرو بن العاص في حرب صفين من خلال تشجيع جند الشام على الصبر حيث كان المحفز البارز لهم للثبات أمام جيش علي بن أبي طالب - رضي الله عنه- " **وقال عمرو بن العاص لأهل الشام يوم صفين: أقيموا صفوفكم مثل قص الشارب، وأعيرونا جماجمكم**[8] **ساعة من النهار، فقد بلغ الحق مقطعه، وإنما هو ظالم أو مظلوم**"[9].

١- النزارية المنحدرة على رأي النسابين من نزار بن معد. وهو والد أربعة أولاد، هم: ربيعة، ومضر، وأنمار، وإياد، وهم أجداد قبائل كثيرة في الوقت نفسه. وقد انتشرت هذه القبائل في أواسط بلاد العرب وشماليها، وقد نعتت مضر بـ "الحمراء"، فقيل: "مضر الحمراء"، ونعتت إياد بـ"الشمطاء"، و"البلقاء"، وقيل لربيعة "الفرس"، ولأنمار "الحمار". ويقال للنزاريين: "نزارية" و"بنو نزار" و"أبناء نزار". الطبري، تاريخ، جـ ٢، ص ١٩٠. السمعاني، الأنساب، جـ١، ص٣٠. السهيلي. عبد الرحمن بن عبد الله(ت: ٥٨١هـ / ١١٨٥م). روض الأنف، جـ ١، دار إحياء التراث العربي، بيروت: ١٩٩١م، ص٨ (سيشار إليه فيما بعد: السهيلي، روض الأنف). الزبيدي، محمد مرتضى(ت: ١٢٠٥هـ/ ١٧٩٠م). تاج العروس من جواهر القاموس، جـ ٣، دار صادر، بيروت: ٢٠١١م، ص٥٦٣ (سيشار إليه فيما بعد: الزبيدي، تاج العروس).

٢ - الجاحظ، رسالة الحكمين، ص٣٤٧

٣ - الجاحظ، رسالة الحكمين، ص٣٤٧

٤- المصدر نفسه، ص٣٤٧

٥ - المبرد، الكامل في اللغة، جـ ١، ص ٢٦. ابن عساكر، تاريخ دمشق، جـ ٦٥، ص ٢٤٩. انظر: العش، الدولة الأموية، ص ١٠١.

٦ - العش، الدولة الأموية، ص ١٠٩.

٧ - الجاحظ، رسالة الحكمين، ص ٣٤٧.

٨- أي جودوا ولا تبخلوا بأنفسكم عن القتل. لسان العرب، جـ ١٢، ص ١١٠

٩- هذه الخطبة صدرت أيضا من معاوية بن أبي سفيان في أهل الشام وأصلها " قام معاوية في أهل الشام خطيبا فقال أيها الناس أعيرونا جماجمكم". الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ٢، ص ١٩٦. انظر: ابن مزاحم، نصر بن مزاحم المنقري(ت: ٢١٢هـ / ٨٢٧ م). وقعة صفين، تحقيق عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت:

إذ استفاد معاوية بن أبي سفيان من حكمة عمرو بن العاص في أن يقلب الأمر على علي[1]. أورد الجاحظ رد عبدالله بن عباس على عمرو بن العاص لتحقيق الهدف الذي يرمي إليه من عدم أحقية بني أمية بالخلافة في إشارة إلى ميوله العباسية[2]، مؤكدا على حق بني العباس بالخلافة، وهذا العامل هو السبب في إيراد الجاحظ لهذا الموقف " **يا عمرو، إنك بعت دينك من معاوية فأعطيته ما في يدك، ومنّاك ما في يد غيره، فكان الذي أخذ منك فوق الذي أعطاك، وكان الذي أخذت منه دون ما أعطيته، وكل راض بما أخذ وأعطى، فلما صارت مصر في يدك تتبعك فيها بالعزل والتنقص**"[3]. فالجاحظ كثيرا ما يورد موقف عبدالله بن العباس من عمرو بن العاص ومن معاوية ومن مسألة التحكيم، فهو يعلم منزلة ابن عباس في الأمة، قاصدا إرضاء السلطة العباسية وإقناع عامة الناس بسلامة موقف ابن عباس من علي، كما يهدف إلى استمالة العلويين للسلطة العباسية[4].

١٩٩٠م، ص ٢٣٧ (سيشار إليه فيما بعد: ابن مزاحم، وقعة صفين). الطبري، تاريخ الطبري، جـ ٣، ص٦٨. صفوت، أحمد زكي. جمهرة خطب العرب، دار الحداثة، بيروت: ١٩٨٥م، جـ ١، ص٣٣٩ (سيشار إليه فيما بعد: صفوت، جمهرة خطب العرب).

١ - أبو موسى الأشعري عبد الله بن قيس بن سليم (٢١ ق هـ - ٤٤ هـ/ ٦٠٢ - ٦٦٥ م) من بني الأشعر، من قحطان: صحابي، أحد الحكمين اللذين رضي بهما علي ومعاوية بعد حرب صفين. ولد في زبيد(باليمن) وقدم مكة عند ظهور الإسلام، فأسلم، وهاجر إلى أرض الحبشة. ثم استعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم على زبيد وعدن. وولاه عمر بن الخطاب البصرة سنة ١٧ هـ، فافتتح أصبهان والأهواز. ولما ولي عثمان أقره عليها. ثم عزله، فانتقل إلى الكوفة، فطلب أهلها من عثمان توليته عليهم، فولاه، فأقام بها إلى أن قتل عثمان، فأقره علي. ثم كانت وقعة الجمل وأرسل علي يدعو أهل الكوفة لينصروه، فأمرهم أبو موسى بالقعود في الفتنة، فعزله علي، فأقام إلى أن كان التحكيم وخدعه عمرو بن العاص، فارتد أبو موسى إلى الكوفة، فتوفي فيها. انظر: مجهول، أخبار العباس وولده، ص ٣٦، ٢٥٥. الدينوري، الأخبار الطوال، ص١٩٩-٢٠١. الذهبي، سير أعلام النبلاء، جـ ٢، ص ٣٨٠ وما يليها. الصفدي، الوافي بالوفيات، جـ ٥، ص ٤٥٣.

٢ - قال عبد الله بن العباس لعمرو بن العاص إنه مال بك إلى معاوية الهوى وبعته دينك بالثمن اليسير...، وابتدأها معاوية بالبغي فانتهى منها إلى السرف، وليس أهل الشام فيها كأهل العراق. البلاذري، أنساب الأشراف، جـ ٢، ص ٣٠٧.

٣- الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ٢، ص ٢٠٦

٤ - كتب معاوية إلى عبد الله بن عباس: أما بعد فإنكم معشر بني هاشم لستم إلى أحد بالمساءة أسرع منكم إلى أنصار عثمان، فإن يك ذلك لسلطان بني أمية فقد وليها بنو تيم وعدي فأظهرتم الطاعة، وقد وقع من الأمر ما ترى مما كان من وقعة البصرة، فلما قرأ ابن عباس كتابه ضحك ثم قال: حتى متى يخطب إلي معاوية عقلي وأجمجم له عما في نفسي. ثم كتب: بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله بن عباس إلى معاوية بن أبي سفيان، أما بعد، فقد أتاني كتابك، فأما ما ذكرت من سرعتنا إلى أنصار عثمان بسلطان بني أمية فقد أدركت حاجتك بعثمان، لقد استنصرك فلم تنصره حتى صرت إلى ما صرت إليه، وبيني وبينك في ذلك ابن عمك الوليد بن عقبة وما كتب به إليك ، وأما طلحة والزبير فإنهما طلبا الملك ونكثا البيعة، فقاتلناهما على النكث، وقاتلناك على البغي" البلاذري، أنساب الأشراف، جـ ٥، ص ١٠٥-١٠٦.

كما يشير الجاحظ إلى حادثة رفع المصاحف[1] ويعدها خدعة ومكيدة أدت إلى تقسيم جيش علي " **فانظر بعد ذلك هل بقي له إلا رفع المصاحف وهي من خدعه، ثم انظر هل خدع بها إلا من عصى عليا ومال عن رأيه وخالف إذنه. فإن زعمت أنه نال ما أراد من الاختلاف فقد صدقت، وليس في هذا اختلفنا ولا عن غرارة أصحاب علي وعجلتهم وتسرعهم وتنازعهم دفعنا**"[2]. ويهدف الجاحظ من ذلك إلى إيضاح أن معاوية لم يلتزم بالكتاب والسنة، وإنما خدعه ليستولي على الخلافة[3] وهذا مما لم يعهد عن معاوية الذي كان كاتبا للنبي صلى الله عليه وسلم.

ويؤيد الطبري ما ذكره الجاحظ من انطلاء حيلة معاوية على الناس[4]. لكن علي فهمها، وإنما قبل بالتحكيم تلافيا للشقاق أن يدب في صفوف عسكره بسبب رفع المصاحف[5]. وقد حاول علي أن يظهر غدر معاوية "**ويحكم إنها خدعة ومكيدة، وإنها بعد دليل على الفشل وعلى انقطاع القوة؛ فانتهزوا هذه الفرصة فقد دلكم بها على موضع العورة، وليس بينكم وبين الظفر إلا صبر ساعة**"[6]. ومن جهة أخرى يؤكد الجاحظ أن عليا أشد الناس قلبا وأكثرهم للأقران قتلا "**إن ادّعيتم الجبن على أشد الناس قلبا وأشرا وأكثرهم للأقران قتلا وأيمنهم نقيبة وأشدّهم بصيرة**"[7] ولأنه كان يدرك خدعة معاوية وعمرو وقد حذر اتباعه في خطبه منها ودعاهم إلى مواصلة القتال[8].

يحلل الجاحظ موقف أبي موسى الأشعري، ويشير أنه حاول صرف الخلافة إلى عبدالله بن عمر لعلاقة الود التي كان يحفظها لوالده "**قد عرفنا حال أبي موسى عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وعند أبي بكر ومنزله من عمر بن الخطاب ومكانة من عثمان بن عفان في كثرة فتوحه وصحة**

---

١ - قال معاوية مخاطبا عمرو بن العاص: هلم مخبآك فقد هلكنا، وتذكر ولاية مصر، فقال عمرو: أيها الناس، من كان معه مصحف فليرفعه على رمحه، فكثر في الجيش رفع المصاحف، ورفع في عسكر معاوية نحو من خمسمائة مصحف. المسعودي، مروج الذهب، جـ ١، ص ٣٣٠.

٢- الجاحظ، رسالة الحكمين، ص٣٦٦

٣ - الزويري، الإمامة، ص ٧٥.

٤- قال علي بن أبي طالب: إن معاوية وعمرو بن العاص وابن أبي معيط وحبيب بن مسلمة وابن أبي سرح والضحاك بن قيس أنا أعرف بهم منكم قد صحبتهم أطفالا وصحبتهم رجالا فكانوا شر أطفال وشر رجال ويحكم إنهم ما رفعوها ثم لا يرفعونها ولا يعلمون بما فيها وما رفعوها لكم إلا خديعة ودهنا ومكيدة. الطبري، تاريخ، جـ ٣، ص ١٠١. ابن الأثير، الكامل، جـ٢، ص٥٤

٥ - مجهول، أخبار العباس وولده، ص ٤٠ -٤١.

٦- الجاحظ، رسالة الحكمين، ص٣٥١

٧ - المصدر نفسه، ص٣٦٠

٨ - عندما رفع أهل الشام المصاحف قال علي لأصحابه: هذه مكيدة ووهن، وأنّهم لو قصدوا إلى حكم المصاحف لم يأتوني، ثم سألوني التحكيم، أفعلمتم أنّه كان منكم أحد أكره لذلك منّي؟ قالوا : نعم، قال: فهل علمتم أنكم استكرهتموني على ذلك حتى أجبتكم إليه، فاشترطت أنّ حكمهما نافذ ما حكما بحكم الله ، فمتى خالفاه فأنا وأنتم من ذلك براء، وأنتم تعلمون أنّ حكم الله لا يعدوني، قالوا: اللّهمّ نعم. مجهول، أخبار العباس وولده، ص ٤٠.

تدبيره"[1]. إن أبا موسى وعمرًا اتفقا على أن يعهدا بأمر الخلافة إلى الموجودين على قيد الحياة من أعيان الصحابة الذين توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راضٍ. مع العلم أن عبد الله بن عمر ما كان ليرضى بنكث البيعة، وهذا ما أكده الجاحظ "**وإياه عنى ابن عمر حين قيل له: هلا بايعت أخاك ابن الزبير؟ فقال: إن أخي وضع يده في عقبة ودعا إلى البيعة. إني لا أنزع يدي من جماعة وأضعها في فرقة**"[2]

فكان عبد الله بن عمر لا يرى طلبها ولا الدفع عنها إلا بتركها والاعتزال عن أمرها[3]. وعلى الرغم أن علياً لم يقبل أبا موسى الأشعري حَكَما من طرفه[4] إلا أن إصرار الناس عليه لم يجعل له مفراً من القبول[5] " **كان ما امتحن به علي واشتدت البلوى على أصحابه فيه وعلى أصحاب النبي وعلى من معه من أجناده ومن خاصة أهله، أن صار الحكم الموازي لعمرو بن العاص أبا موسى الأشعري، فكان من خدعه له ومن غدر عمرو به ما قد علمتم** "[6]. وروابة الجاحظ التي يشير فيها أن أبا موسى خدع علي لم توجد في مصادر التاريخ الأخرى، بل جاء بها الجاحظ باستنتاج عقلي لا يمس لمجريات الأحداث بصله.

ومن جانب أخر أشارت رواية الجاحظ أن عمرو بن العاص خدع أبا موسى الأشعري بعد أن اتفقا على خلع علي ومعاوية، وقدمه في الكلام حتى يخدعه[7]، فكان كلام أبي موسى الأشعري "**نخلع علياً ومعاوية ويولي الناس أمرهم من أحبوا، وإني قد خلعت علياً ومعاوية فاستقبلوا**

١- الجاحظ، رسالة الحكمين، ص٣٥١. الزويري، الإمامة، ص ٧٧

٢- الجاحظ، الحيوان، جـ ١، ص ١٥٩

٣ - قال عمرو بن العاص مخاطبا أبا موسى الأشعري: إن هذا الأمر لا يصلح إلا لرجل له ضرس يأكل به ويطعم. فرد عليه: ويحك إن العرب قد أسندت إليك أمرها بعد أن تقارعت بالسيوف وتناكزت بالرماح فلا تردنهم إلى مثل ذلك. فكانت هذه المقدمات التي خدع بها عمرو بن العاص أبا موسى. الجاحظ، رسالة الحكمين، ص ٣٤٦. البلاذري، أنساب الأشراف، جـ ٢، ص ٣٥٠.

٤ - لأن أبا موسى لم يقبل بخلافة علي إلا بعد التردد، كما أنه لم ينظم إليه في القتال بل تنحى جانباً، ومما قاله علي في ذلك: فإنه ليس لي بثقة قد فارقني وخذل الناس عني ثم هرب مني حتى آمنته بعد أشهر. الطبري، تاريخ الطبري، جـ ٣، ص١٠٢. العش، الدولة الأموية، ص ١٠٩.

٥- الطبري، تاريخ، جـ ٣، ص ١٠٣. ابن الأثير، الكامل، جـ ٢، ص ٧٥. العش، الدولة الأموية، ص ١٠٩.

٦- الجاحظ، رسالة الحكمين، ص٣٥١

٧ - المسعودي، مروج الذهب، جـ ١، ص٣٣٢.

أمركم وولوا عليكم من رأيتموه أهلاً. ثم تنحى "[١]. فخلع أبو موسى علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - فقام عمرو بن العاص وثبت معاوية في الخلافة[٢]

والطبري يرى من خلال الحوار الذي دار بين أبي موسى الأشعري وعبدالله بن عباس أن مكيدة تعرض لها أبو موسى الأشعري من قبل عمرو بن العاص **" قال ابن عباس قبح الله رأي أبي موسى حذرته وأمرته بالرأي فما عقل فكان أبو موسى يقول حذرني ابن عباس غدرة الفاسق ولكني اطمأننت إليه وظننت أنه لن يؤثر شيئا على نصيحة الأمة "**[٣]. إذ خدع أبو موسى من قبل عمرو بن العاص على الرغم من تحذير ابن عباس، فدب الخلاف بين المسلمين من جديد[٤]. ومن جهة أخرى يشير الجاحظ إلى دور شيعة علي في ما حدث من اضطراب في صفوف جيش علي بعد أن خذله أصحابه في مرحلة حرجة[٥].

ومن مجمل ما سبق لاحظنا التحليل الذي قام به الجاحظ في إثبات قيام معاوية وعمرو بن العاص بخداع علي بن أبي طالب – رضي الله عنه - . وفي معرض حديثه عن خلافة معاوية يؤكد أن الشورى هي السبيل لاختيار الإمام[٦]، وهي السيرة التي سار عليها الخليفة عمر بن الخطاب- رضي الله عنه - قبل وفاته **" فهل خالف ذلك الرأي من عمر أحد؟ ولقد اتفقوا عليه بعد موته كما اتفقوا عليه قبل موته؛ ولقد خالف بعضهم أبا بكر في استخلاف عمر وما خالف أحد عمر في وضع الأمر في الستة، ولم يقل أحد من الستة: فينا واحد لم يكن ينبغي أن يكون معنا، أو في الناس واحد كان ينبغي أن يكون معنا "**[٧]. كما يرفض أن يكون للعامة دور لأنها لا تعي شروط وواجبات وأهمية

١- الطبري، تاريخ، جـ ٣، ص ١١٣. ابن الأثير، الكامل، جـ ٢، ص ٨٠.

٢ - أخذ عمرو بن العاص يقدم أبا موسى في الصلاة والكلام ويعظمه ويوقره بقوله: أنت صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم قبلي ولك سنك وفضلك فإذا تكلم أبو موسى تكلم عمرو بعده حتى عوده ذلك. وقال أبو موسى لعمرو: ما رأيك؟ قال رأيي أن نخلع هذان الرجلان ونجعل الأمر شورى فيختار المسلمون لأنفسهم وينقطع الحرب. قال أبو موسى: نعم ما رأيت. قال عمرو: فتقدم. فقال أبو موسى: لم نر شيئا أصلح من خلع هذين الرجلين ثم تستقبل الأمة أمورها، إني قد خلعت عليا ومعاوية. وأقبل عمرو فقال: إن هذا قد قال: ما سمعتم وخلع صاحبه، وأنا أخلعه كما خلعه وأثبت صاحبي معاوية. البلاذري، أنساب الأشراف، جـ ٢، ص٣٥٠. العسكري، الأوائل، ص ١١٤.

٣- الطبري، تاريخ، جـ ٣، ص ١١٣. ابن الأثير، الكامل، جـ ٢، ص ٨٠.

٤- لما قدّم عمرو بن العاص أبا موسى إلى المنبر رآه عبد الله بن عباس فقال له :قدمه قبلك .فقال :لا، قد اتفقنا على أمر، فصعد المنبر، فخلع علياً، ثم صعد عمرو بن العاص فقال :قد ثبت معاوية كما ثبت خاتمي هذا في يدي . اليعقوبي، تاريخ، ص ٢٨٠.

٥ - الجاحظ، رسالة الحكمين، ص ٣٧٧- ٣٧٨. الزويري، الإمامة، ص ٩

٦ - الجاحظ، رسالة الحكمين، ص٣٨٧. الزويري، الإمامة، ص٥٦

٧- الجاحظ، رسالة الحكمين، ص٣٩٠

الإمامة، كما أن العامة نفسها مالت إلى معاوية بسبب استنكارها مقتل عثمان - رضي الله عنه- ، فهي لا تعي ولا تدرك مجريات الأمور[1].

يشير الجاحظ إلى الفِرق التي أيدت معاوية وتثبت حقه في الخلافة[2] وهي: السفيانية نسبة إلى أبي سفيان والد معاوية **"وكان مما احتجوا به في استحقاق اسم الخلافة واستيجاب الإمامة أنه قال: هذا موضع وضعني به عمر بن الخطاب، ولم يعزلني مذ ولاني وقد كان لا يكاد يدع أميرا إلا استبدل به وإلا غضب عليه لبعض ما يكون منه"**[3] لقد ذهبوا إلى أن الخلافة شورى كما ارتأى عمر بن الخطاب- رضي الله عنه - عندما اختار ستة رجال وأمرهم باختيار الخليفة بعده منهم، ولم يبق منهم سوى أربعة وكلهم لا يصلحون للخلافة. والسفيانية تنكر أن يكون معاوية قاسطا أو جائرا، ولو كان كذلك لما أطاعه الناس وحاربوا معه وضحوا بنفوسهم وأموالهم من أجله[4]. والجاحظ يعترف بأن حجج السفيانية ألقاها إليه ابن حسان[5] مفسرة مستوفاة لكي لا يعتب عليه أحد **"قد كتبت إليك، يا ابن حسان[6]، ورسمت لك ما ألقيت إلي من جمل دعواهم مفسرا ومن حججهم مبينا"**[7]. أي أن هذه الحجج لم تكن سوى مناقشات كلامية جدلية[8].

كذلك جماعة عرفت بالمروانية نسبة إلى مروان بن الحكم المؤسس الثاني للخلافة الأموية[9] **"وزعمت أنك سمعت رجالا من السفيانية ممن يرى رأي المروانية... ذكروا حججا في تثبيت الخلافة لمعاوية وأن نسبه إليها أقرب من نسب الزبير وطلحة"**[10].

---

١ - الجاحظ، رسالة الحكمين، ص٣٧٨. الزويري، الإمامة، المقدمة ص (جـ).

٢ - EL-'ATTAR, THOUGHT OF AL-JĀHIZ ,p٢١٠

٣- الجاحظ، رسالة الحكمين، ص٣٨٥

٤ - الجاحظ، هامش رسالة الحكمين، ص ٤٠٤

٥- ابن بحدل حسان بن مالك بن بحدل بن أنيف(ت: ٦٥ هـ / ٦٨٥ م) أمير بادية الشام. كان من القادة في جيش معاوية يوم صفين. ثم آزر مروان في حربه مع الضحاك بن قيس. وهزم الزبيرية وقتل الضحاك بن قيس الفهري في يوم مرج راهط وكانت ابنته ميسون بنت حسان أم يزيد بن معاوية. الطبري، تاريخ، جـ ٣، ص٣٧٩-٣٨٢. الحموي، معجم البلدان، جـ ١، ص١٤٩. الذهبي، سير أعلام النبلاء، جـ٣، ص ٥٣٧.

٦- يشير الجاحظ إلى ابن حسان ولا يورد تفصيل عنه لكن يبدو من خلال سياق الكلام أنه يميل إلى العثمانية ويكره الشيعة ومن المحتمل أن يكون عبدالرحمن ابن حسان بن ثابت الانصاري المدني حدث عن أبويه، وزيد بن ثابت. ولد في حياة النبي صلى الله عليه وسلم، وعاش نيفا وتسعين سنة. وتوفي سنة أربع ومئة. . انظر: رسالة الحكمين، ص ٤٠٤. الذهبي، سير أعلام النبلاء، جـ ٥، ص ٦٤.

٧- الجاحظ، رسالة الحكمين، ٣٩٢

٨ - الزويري، الإمامة، ص ٨٠

٩- الجاحظ، رسالة فضل هاشم، ص ٤٤٣

١٠- الجاحظ، رسالة الحكمين، ص ٣٨٣

ومن الجماعات التي أيدت خلافة معاوية الغيلانية[1] نسبة إلى غيلان بن مسلم الدمشقي(١٠٥هـ / ٧٢٣م)[2] " **وبعض من ينحل مذهب الغيلانية**"[3].

كذلك اليزيدية أصحاب يزيد بن أنيسة[4] "**أصحاب يزيد بن أنيسة الذي قال بتولي المحكمة الأولى قبل الأزارقة** "[5]، فهؤلاء كلهم يحتجون بأحقية معاوية ويؤيدون خلافته[6].

مما سبق يُلاحظ أن الجاحظ تناول وصول بني أمية للسلطة منذ موقعة صفين إذ يعتبرها المنطلق التي مكنت الأمويين من الوصول للسلطة، كذلك أشار الجاحظ من خلال الأحداث التي ساقها بأن وصول معاوية إلى الحكم كان بقوة السيف والحيلة والغدر وليس باختيار المسلمين. ففي حديثه عن معاوية يشير أنه برأي اتباعه أولى بالخلافة من بقية الشورى لأنه أبرأهم ساحة من العيوب التي رموا بها ولأنه أولى من انتدب لحسم الخلاف وتسلم مقاليد الملك وتفريج الكرب عن الناس، ولأن عمر -رضي الله عنه- ولاه وعثمان -رضي الله عنه- زكاه، ولأنه أولى الناس بالمطالبة بدم عثمان - رضي الله عنه -[7].

ويتضح أن موقف الجاحظ من بني أمية ووصولهم للسلطة يعكس رأي المعتزلة، الذي هو أحد كبار مفكريها "**ولم انصب نفسي- حفظك الله- لاحتجاج له إلّا بما يلزمني من الاحتجاج من لا يرى إكفاره من السلف، وإيّاهم أردت وعنهم دافعت؛ وعلى أنّي على كلّ حال أكره الزيادة والنقصان، والعدل أولى بنا وهو مذهب إخواننا ومشايخنا وسلفنا من المعتزلة في فرق ما بين الإكفار والتفسيق، وفي فرق ما بين التفسيق والتأثيم، ولسنا ممّن يميل في شقّ عن شقّ ويتعصّب لبعض على بعض ومن يبخس حقّ الدون**"[8].
فكانت معالجته لوصول بني أمية للخلافة تتماشى وموقف السلطة العباسية الداعي إلى الرضى

١ - ترى الغيلانية في الامامة إنها تصلح في غير قريش، وكل من كان قائما بالكتاب والسنة فهو مستحق لها، ولا تثبت إلا بإجماع الامة. ابن النديم، الفهرست، ص ١٤٩. الشهرستاني، الملل والنحل، جـ ١، ص ١٣٩ .

٢- ثاني من تكلم في القدر ودعا إليه، كان غيلان يقول بالقدر خيره وشره من العبد، وفي الإمامة إنها تصلح في غير قريش، وكل من كان قائما بالكتاب والسنة فهو مستحق لها، ولا تثبت إلا بإجماع الامة. وله رسائل في نحو ألفي ورقة.، ابن النديم، الفهرست، ص١٤٩. الشهرستاني، الملل والنحل، جـ ١، ص ١٤٣.

٣- الجاحظ، رسالة الحكمين، ص ٣٨٣

٤ - إمام اليزيدية، الذي تولى المحكمة الأولى وتبرأ مما بعدها. الشهرستاني، الملل والنحل، جـ ١، ص١٣٦.

٥- الشهرستاني، الملل والنحل، جـ ١، ص ١٣٦.

٦- الجاحظ، رسالة الحكمين، ص ٣٨٣

٧ - مقدمة تحقيق رسالة الحكمين، ص ٣٢.

٨ - المصدر نفسه، ص ٣٦٩.

من العلويين والتقرب إليهم، بعد أن أعلن المأمون البراءة من معاوية والترضي على علي بن أبي طالب - رضي الله عنه- [1].

ثانياً: التوريث الأسري (التسلسل التاريخي للدولة الأموية (٤١-١٣٢هـ / ٦٦١-٧٥٠م)

تناول الجاحظ موضوع توريث الخلافة والمبايعة لولي العهد في الدولة الأموية من باب التنقيص عليهم وعرض سوء اختيار ولي العهد، فالروايات التي احتوت عليها مصنفات الجاحظ يمكن الخروج منها باستدلالات حول رأيه في قضية التوريث عند بني أمية، والجدير بالذكر أن الجاحظ تواجهه إشكالية في تناوله لموضوع ولاية العهد(التوريث)، لأنها قضية مهمة وشائكة للسلطة العباسية، خاصة بعد الآراء التي بدأت تظهر والتي تنادي أن العباسيين مغتصبون للخلافة كما هو حال بني أمية، وأن الخلافة من حق العلويين لكن العباسيين حولوها لهم، مستغلين الدعاية التي بثوها بين الناس لتحقيق مأربهم[2].

ظهر نظام التوريث في العصر الأموي. وأول من اتبعه معاوية بن أبي سفيان مقلدا بذلك النظم الفارسية والبيزنطية. فقام معاوية قبل وفاته بأخذ البيعة لابنه يزيد[3] سنة ٥٦هـ / ٦٧٦م **"لما مات زياد دعا معاوية بكتاب فقراه على الناس باستخلاف يزيد إن حدث به حدث الموت فيزيد ولي عهده فاستوثق له الناس على البيعة ليزيد "**[4] .

---

١ - البغدادي، الفرق بين الفرق، ص ١٥٧. المقريزي، المواعظ والاعتبار، جـ ٣، ص ١٠٢. بلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ٣٩١ . الزويري، الإمامة، ص ٣٠. هياجنه، الجاحظ مؤرخاً، ص٤٧.

٢ - ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـ ٣، ص ١٤٨. بلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ص٣٩١ . الدروبي آثار الجاحظ، ص ٨٢. الزويري، الإمامة، ص ٣٠. هياجنه، الجاحظ مؤرخاً، ص٤٧.

٣- يرى ابن خلدون أن هدف معاوية في مبايعة ابنه يزيد هو مصلحة الأمة، كذلك اتفاق أهوائهم باتفاق أهل الحل والعقد عليه حينئذ من بني أمية، إذ أن بني أمية يومئذ، لا يرضون سواهم أن يتولى الخلافة. كما شعر معاوية أن التنافس على الحكم قد فرق كلمة المسلمين فعهد بالخلافة إلى ابنه يزيد وقد استعمل في مبايعته اساليب الترغيب والترهيب وكل ما أوتي من حنكة سياسية، وبذلك قضى معاوية على نظام الشورى الذي كان زمن الخلفاء الراشدين. ابن خلدون، المقدمة، ص١٠٩.

٤- الطبري، تاريخ، جـ ٣، ص ٢٤٨

تشير الروايات أن معاوية لم يكن صاحب فكرة التوريث[1]، بل إن بعض المقربين منه أمثال المغيرة بن شعبة الثقفي أشار عليه بتولية يزيد من بعده، ولم ينفذ معاوية هذه المشورة إلا عام ٥٦هـ / ٦٧٦م[2]. وإن كان معاوية استهوته مسألة توريث الخلافة لابنه يزيد[3].

وقد أوضح الجاحظ حجة معاوية من بيعته ليزيد والتي تتمثل في مصلحة المسلمين "**فلا ضلّلته لأنه بايع ابنه، وما باس بيعة الابن إذا كان لذلك مستحقا** "[4]، يتضح من رواية الجاحظ نوع من التقريع بالأمويين الذي يؤيدون بيعة يزيد على ما به من العيوب والمساوئ، وهو ما أشار له فوزي بقوله "**برر معاوية بن أبي سفيان قرار البيعة لابنه يزيد، وتوريث الخلافة له بتحاشي الفتنة واختلاف الأمة**"[5]. وبذلك تحولت الخلافة لتصبح ملكاً عضودا[6] "**والعام الذي تخلت فيه الإمامة ملكا كسرويا، والخلافة غصبا وقيصريا، ولم يعد ذلك أجمع الضلال والفسق**"[7].

قام معاوية بأخذ البيعة ليزيد، فبدأ بالمدينة لما تمثله من ثقل ديني إذ بها قبر النبي صلى الله عليه وسلم والتي هاجر إليها بعد إخراجه من مكة فصارت مكرمة عند المسلمين، كما أن بها الصحابة والتابعين[8]، فكان معاوية على دراية بموقف الناس تجاه البيعة لابنه، فأراد بذلك أن يضمن انتقالها إليه من بعده "**وقام الوليد بن عتبة بن أبي سفيان، خطيبا بالمدينة، وكان واليها، ينعي**

---

١ - استشار معاوية زياد بن أبيه في تولية يزيد العهد حتى يوهم الناس أنه سار على مبدأ الشورى، فأشار عليه بالتوريث ثم وافق بعد أن استشار سادات القبائل في الكوفة والبصرة الذي كان والياً عليهما من عام ٥٠هـ / ٦٧٣م. لقد جعل معاوية الخلافة وراثية حين استخلف ابنه، وهذا خلاف ما قام به علي بن أبي طالب عندما سُئل عن الحسن وبيعته أجاب لا آمركم ولا أنهاكم وأنتم بأموركم أبصر.

انظر: ابن خياط، تاريخ، ص١٢٨. الطبري، تاريخ، جـ ٣، ص ١٥٧. المسعودي، مروج الذهب، جـ ٢، ص٤٢٥. ابن الأثير، الكامل، جـ٣، ص٣٩١. العش، الدولة الأموية، ص ١٢٠. فوزي، فاروق عمر. الخلافة الأموية، ط ١، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمّان: ٢٠٠٥م، ص٧٨ (سيشار إليه فيما بعد: فوزي، الخلافة الأموية). السيد، محمود. تاريخ الدولة الأموية، مؤسسة شباب الجامعة، القاهرة: ٢٠٠٢م، ص ٣٧ (سيشار إليه فيما بعد: السيد، تاريخ الدولة الأموية).

٢- منسوب لابن قتيبة، عبدالله بن مسلم(ت: ٢٧٦هـ/ ٨٨٩م). الإمامة والسياسة، ط ٣، دار الكتب العلمية، بيروت: ٢٠٠٩م، جـ ٣، ص١٣٤ (سيشار إليه فيما بعد: منسوب لابن قتيبة، الإمامة والسياسية). الطبري، تاريخ، جـ ٣، ص٢٤٧. ابن الأثير، الكامل، جـ ٣، ص ٥٠١. السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٢٠١.

٣- الطبري، تاريخ الطبري، جـ ٣، ص ٢٤٧-٢٤٨. باحشوان، خلود. نظام ولاية العهد في الدولة الأموية (٤١ - ١٣٢هـ / ٦٦١ - ٧٥٠م)، تقديم فاروق عمر فوزي، ط ١، دار مجدلاوي، الأردن: ٢٠١٣م، ص ٣٤ (سيشار إليه فيما بعد: باحشوان، نظام ولاية العهد).

٤- الجاحظ، رسالة الحكمين، ص ٣٧٠

٥- فوزي، فاروق عمر. تاريخ الدولة الأموية (دراسة حولية حسب عهود الخلفاء ٤١-١٣٢هـ / ٦٦١-٧٥٠م)، دار مجدلاوي، الأردن: ٢٠١٣م، ص ٣٩ (سيشار إليه فيما بعد: فوزي، تاريخ الدولة الأموية).

٦ - ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، جـ ١، ص ٢٤٤

٧ - الجاحظ، رسالة النابتة، ص٢٤٣.

٨ - وردت العديد من الأحاديث الصحيحة في فضل المدينة. انظر: مقدمة ابن خلدون، ص ٢٠٠.

معاوية ويدعو إلى بيعة يزيد، فلما رأى روح بن زنباع[1] إبطاءهم قال: أيها الناس، إنا لا ندعوكم إلى لخم وجذام وكلب، ولكنا ندعوكم إلى قريش ومن جعل الله له هذا الأمر واختصه به، وهو يزيد بن معاوية، ونحن أبناء الطعن والطاعون، وفضالات الموت، وعندنا إن أجبتم وأطعتم من المعونة والعائدة ما شئتم فبايع الناس"[2] فكان الهدف من البيعة ضمان انتقال الخلافة بعد معاوية لابنه يزيد، وكذلك أخذ العهود والمواثيق بعدم النكث فيها بعد توكيد الأيمان. وأيا كانت بيعة المسلمين بالرضى أو بالجبر فإنها تأخذ عليهم وتكون حجة عليهم بعد ذلك[3].

يعترض الجاحظ على مسألة توريث العهد خاصة إذا كان ولي العهد لا يستحق الخلافة مثل يزيد، لكنه لا يعارض المبدأ نظراً لقيام بني العباس بتولية العهد[4]، ففي هذا الجانب يرد على السفيانية التي لا تحكم على معاوية بالضلال بسبب مبايعته ابنه يزيد بولاية العهد **"ولكني عتبت عليك في قولك: وضللته أيضا لبيعته لابنه، فإن قلت: وضللته أيضا بالمبايعة ليزيد لأنه كان صاحب كذا وكذا ويقول كذا، لكان صوابا ولكان قولا عدلا ولكان مصفى مهذبا، وأجود العبارات ما كانت الدلالة فيها غير مستنكرة ويكون اللفظ للمعنى طبقا فاضلا ولا ناقصا، وأما أن تقول كلمة مرسلة الوجوه مطلقة ضللته لأنه بايع ابنه، وما باس بيعة الابن إذا كان لذلك مستحقا؟ ما الابن إلا كالأخ وما الأخ إلا كابن العم؛ وما علمك؟ لعل عليا قد بايع الحسن ولعل الحسن قد بايع الحسين؟ "**[5].

كما يعترض الجاحظ على بيعة الناس ليزيد بالخلافة، فإن الأعمال التي قام بها معاوية وما قام به يزيد تجعل شروط الإمامة بعيدة عنه:" **وليس قتل حُجْر بن عدي**[6]**، وإطعام عمرو بن العاص خراج مصر**[7]**، وبيعته يزيد الخليع ..... من جنْس جحْد الأحكام المنصوصة، والشرائع المشهورة،**

---

١ - روح بن زنباع بن روح بن سلامة، روى عن أبيه وعن آخرين. وكان مع مروان في مرج راهط. كما ساهم في تقديم الحجاج عند عبد الملك بن مروان. توفي سنة أربع وثمانين. ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ ٢، ص٣٠-٣١. الذهبي، سير أعلام النبلاء، جـ ٤، ص٢٥١. الصفدي، الوافي بالوفيات، جـ ٤، ص ٩٠.

٢- الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ١، ص ٣٠٩

٣ - ابن الطقطقي، الفخري، ص ١١٥- ١١٧

٤ - انظر: البلاذري، أنساب الأشراف، جـ ٤، ص ٢٧٦. الطبري، تاريخ الطبري، جـ ٤، ص ٤٩١. ابن الجوزي، المنتظم، جـ ٨، ص ٢٢٩. الزويري، الإمامة، ص ٨١

٥- الجاحظ، رسالة الحكمين، ص٣٧٠

٦- حجر بن عدي بن معاوية الكندي، المعروف بحجر الخير، عندما تولى المغيرة بن شعبة ولاية الكوفة أعرض عن قتل حجر على الرغم من معارضته لعن علي على المنابر، وعندما تولى الكوفة زياد بن أبيه جمع حجر وأصحابه وأرسلهم إلى معاوية الذي أمر بقتلهم قبل أن يصلوا دمشق. أحدثت جريمة قتل حجر وأصحابه ضجة واستنكاراً في العالم الإسلامي، وممن استنكر ذلك الحسين بن علي. الطبري، تاريخ، جـ ٥، ص ٢٥٣. المسعودي، مروج الذهب، جـ ٣، ص ١٨٨.

٧ - تولى عمرو بن العاص مصر عشر سنين، منها لعمر بن الخطاب أربع سنين، ولعثمان بن عفان أربع سنين إلا شهرين، ولمعاوية سنتين وثلاثة أشهر، وتوفي وله ثمان وتسعون سنة . اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ص١٩٧.

والسنن المنصوبة"[1] لكنه في المقابل لا يذكر حسنات معاوية وجهوده في خدمة الإسلام، ويرى أن يزيداً لا يستحق الخلافة، فقد أطلق عليه يزيد الخليع، لما كان يأتيه من أفعال، فكيف لمثله أن يكون خليفة[2].

أورد الجاحظ رواية تصف الطريقة التي تمت بها مبايعة يزيد، إذ يشير أن معاوية أجبر الناس على مبايعة ابنه يزيد بقوة السيف " **ولما اجتمع الناس، وقامت الخطباء لبيعة يزيد، وأظهر قوم الكراهة قام رجل من عذرة يقال له يزيد بن المقنع[3]، فاخترط من سيفه شبرا ثم قال: أمير المؤمنين هذا- وأشار بيده إلى معاوية- فإن مات فهذا- وأشار بيده إلى يزيد- فمن أبى فهذا- وأشار بيده إلى سيفه. فقال له معاوية: أنت سيد الخطباء**"[4]. وإعجاب معاوية بخطبته نابع من السياسة التي سيسير عليها معاوية في مبايعة ابنه، كما ترسم ملامح الطريق التي سيتبعها يزيد بعد ذلك في مواجهة معارضي خلافته.

أشار الجاحظ أن معاوية عمل قبل وفاته على تهيئة الظروف لابنه يزيد، مقرباً من يظن في نفسه العداوة لابنه يزيد، حيث قام معاوية بخطب ود عبد الله بن الزبير ليجس ما في نفسه قبل وفاته " **ذكر معاوية لابن الزبير بيعة يزيد، فقال ابن الزبير: إني أناديك ولا أناجيك، إن أخاك من صدقك، فانظر قبل أن تقدم، وتفكر قبل أن تندم، فإن النظر قبل التقدم، والتفكر قبل التندم. فضحك معاوية ثم قال: تعلمت أبا بكر السجاعة عند الكبر، إن في دون ما سجعت به على أخيك ما يكفيك. ثم أخذ بيده فأجلسه معه على السرير**"[5]. كان معاوية يعلم في قرارة نفسه أن عبد الله بن الزبير سيعارض بيعة يزيد وسيخرج عليه، لذا حاول استمالته إلى صفه، لكن ذلك لم يتم له.

سعى عبد الله بن الزبير في أن يثني معاوية عن أخذ البيعة لابنه يزيد، لأنه كان يعلم يقيناً أن الناس إذا بايعت يزيد بن معاوية ذهبت الخلافة عنه وأصبح أمر طلبها شاقاً، ولم يكن

قال عمرو بن العاص: أرى والله أمر هذه البلاد الكثير خراجها والكثير عددها وعدد أهلها أهمك أمرها فدعوتنا إذا لتسألنا عن رأينا في ذلك فإن كنت لذلك دعوتنا وله جمعتنا فاعزم وأقدم ونعم الرأي رأيت ففي افتتاحها عزك وعز أصحابك وكبت عدوك وذل أهل الخلاف عليك قال له معاوية مجيبا أهمك يا بن العاص ما أهمك وذلك لأن عمرو بن العاص كان صالح معاوية حين بايعه على قتال علي بن أبي طالب على أن له مصر. الطبري، تاريخ الطبري، جـ ٣، ص ١٢٨.

١- الجاحظ، رسالة النابتة، ص٢٤٣.

٢ - المصدر نفسه، ص ٢٤٤.

٣- ابن الاثير، الكامل في التاريخ، جـ ٢، ص ١٤٢، القلقشندي، أحمد بن علي(ت:٨٢١هـ/١٤١٨م). صبح الأعشى في صناعة الانشا، شرح وتعليق محمد حسن شمس الدين، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت: ١٩٨٧م، جـ ٥، ص ٤١٩ (سيشار إليه فيما بعد: القلقشندي، صبح الأعشى).

٤- الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ١، ص ٢٤٧.

٥- الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ١، ص ٢٤٧

بمقدور ابن الزبير أن يصرح بذلك علناً أمام معاوية، بل اكتفى بالتعريض " **وقال ابن الزبير لمعاوية حين أراد أن يبايع لابنه يزيد: تقدم ابنك على من هو خير منه؟ قال: كأنك تريد نفسك؟ إن بيته بمكة فوق بيتك! قال ابن الزبير: إن الله رفع بالإسلام بيوتا، فبيتي مما رفع! قال معاوية: صدقت، وبيت حاطب بن أبي بلتعة**[1]"[2].

عندما حضرت معاوية الوفاة كان يزيد غائباً، فترك له كتاباً يؤكد فيه على وصيته له بالخلافة[3]، أوردها الجاحظ برواية الهيثم بن عدي[4] " **لما حضرت معاوية الوفاة ويزيد غائب دعا معاوية مسلم بن عقبة المري والضحاك بن قيس الفهري فقال أبلغا عني يزيد وقولا له: انظر إلى أهل الحجاز فهم أصلك وعترتك، فمن أتاك منهم فأكرمه، ومن قعد منهم عنك فتعهده. وانظر إلى أهل العراق، فإن سألوك عزل عامل في كل يوم فاعزله عنهم، فإن عزل عامل في كل يوم أهون عليك من سل مائة ألف سيف ثم لا تدري علام أنت عليه منهم. ثم انظر إلى أهل الشام فاجعلهم الشعار[5] دون الدثار[6]...**"[7] كان يزيد يأخذ مأخذ الأحداث، فأحس معاوية بذلك، فأحب أن يعظه في رفق. ونلاحظ دهاء معاوية بن أبي سفيان في الوصية وعلمه بما ستؤول له الأمور بعد وفاته.

أخذ يزيد البيعة[8] بالقوة خاصة ممن لم يبايعه في عهد والده معاوية "**وقتل عبد الله بن زمعة بن الأسود**[9]**، ضرب عنقه مسرف بن عقبة صبرا، قال له: بايع لأمير المؤمنين يزيد بن معاوية على**

١- يعرّض معاوية بحاطب الذي حالف الزبير بن العوام في المدينة لكنه أرسل كتابا إلى قريش يخبرهم بالذي أجمع عليه رسول الله من فتح مكة، وأعطى الكتاب لأمرائه لتوصيله إلى قريش. الطبري، تاريخ، جـ ٢، ص١٥٥

٢- الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ٣، ص ٣٠٥

٣- يورد البلاذري نص الوصية ولكنه لا يذكر فيها أن يزيد كان غائباً. البلاذري، أنساب الأشراف، جـ٥، ص١٠٨.

٤- أبو عبد الرحمن الهيثم بن عدي بن عبد الرحمن كان راوية أخباري، نقل من كلام العرب وعلومها وأشعارها واختص بمجالسة المنصور والمهدي والهادي والرشيد وروى عنهم. ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ٦، ص١٠٧.

٥- الشعار: ما يلبس أسفل الثياب. لسان العرب، جـ ٤، ص٢٧٦

٦- الدثار: الثياب فوق الشعار. لسان العرب، جـ ٤، ص٢٧٦

٧- الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ٢، ص ٦٠

٨- تولى يزيد بن معاوية الخلافة بعد أن ورثها عن أبيه الذي أرسى له دعائم دولته، وضمن له ولاء قبائل الأمصار. ولم يحد عن هذه القاعدة إذ قام بأخذ البيعة لابنه معاوية الثاني الذي كان عمره آنذاك ثمانية عشر عاماً. البلاذري، أنساب الأشراف، جـ ٥، ص ٣٨٠.

٩- التبس الأمر على الجاحظ لأن عبد الله بن زمعة قتل مع الخليفة عثمان بن عفان أثناء الحصار، أما الذي قتله يزيد بن معاوية فهو ابنه يزيد عبد الله بن زمعة في موقعة الحرة. البلاذري، أنساب الأشراف، جـ ٣، ص٢٨٨. الطبري، تاريخ، جـ٣، ص.٣٥٧. ابن حزم، ، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي الظاهري(ت: ٤٥٦هـ / ١٠٦٤م). جمهرة أنساب العرب، تحقيق عبد السلام هارون، دار المعارف، القاهرة: ١٩٦٢م، جـ ١، ص ٥٣ (سيشار إليه فيما بعد: ابن حزم، جمهرة أنساب العرب).

أنك عبد قن له؟ قال: بل أبايعه على أني أخوه وابن عمه. فضرب عنقه "[1] وتدل هذه الرواية على النهج الذي سار عليه يزيد في أخذ البيعة من الناس.

لم يكن معاوية الثاني (ت ٦٤هـ / ٦٨٣م) طامعاً في الخلافة بل منصرفاً عنها، إذ تنازل عن الخلافة بعد مضي شهرين[2] بسبب زهده فيها واعتلال صحته[3] "**معاوية بن يزيد بن معاوية، وهو الذي قيل له في مرضه الذي مات فيه: لو أقمت للناس ولي عهد؟ قال: ومن جعل لي هذا العهد في أعناق الناس! والله لولا خوف الفتنة لما أقمت عليها طرفة عين! والله لا أذهب بمرارتها وتذهبون بحلاوتها**"[4]، تعد الرواية تأكيدا على ما يشير إليه الجاحظ أن الأمويين قد استولوا على الخلافة، وإيراد الرواية بلسان معاوية بن يزيد تأكيد على أن خلافتهم كانت قسرية سارت بإجبار الناس. فوجد في اعتراف معاوية بن يزيد ما يقوى حجته في هذا الجانب[5].

ترك معاوية الثاني الأمر شورى بين المسلمين لاختيار خليفة لهم من بعده[6] " **فلم تفلح أولاده وصارت الخلافة إلى مروان بن الحكم بن العاص بن أمية، فتوارثها بنو مروان حتى انقضت دولتهم بقيام بني العباس**"[7].

وكان موقف معاوية الثاني مثار إعجاب الجاحظ حتى عده من النساك لزهده في الخلافة وتركه إياها عندما لم يَرَ نفسه أهلاً لحملها" **ومن أكثر نساك الملوك منا؟. منا معاوية بن يزيد بن معاوية**"[8]. كانت خلافة معاوية بن يزيد أربعين يوماً إلى أن مات[9]، وقيل: شهرين، وقيل

١- الجاحظ، رسالة فضل هاشم، ص ٤٣٠

٢- الطبري، تاريخ، جـ ٣، ص ٣٦٣. ابن الأثير، الكامل، جـ ٢، ص ١٢٩. خريسات، محمد عبد القادر. الدولة الأموية من النهوض إلى السقوط (٤١-١٣٢هـ)، مؤسسة حمادة، الأردن: ٢٠٠٥م، ص١٦٢.(سيشار إليه فيما بعد: خريسات، الدولة الأموية).

٣- ابن خياط، تاريخ، ص ٢٥٥. البلاذري، أنساب الأشراف، جـ ٥، ص ٣٥٦. ابن الجوزي، المنتظم، جـ ٦، ص ٣٢. فوزي، تاريخ الدولة الأموية، ص ٤٦.

٤- الجاحظ، رسالة فضل هاشم، ص ٤٤٠

٥ - استخلف يزيد ابنه معاوية فاقر عمال أبيه ولم يول أحدا ولم يزل مريضا حتى توفي. كانت خلافته أربعين يوماً، وقيل: بل أربعة أشهر، وكان له مذهب جميل، فخطب الناس، فقال: أيها الناس فإنا بلينا بكم وبليتم بنا فما نجهل كراهتكم لنا وطعنكم علينا، ألا وإن جدي معاوية ابن أبي سفيان نازع الأمر من كان أولى به منه في القرابة برسول الله، وأحق في الإسلام، سابق المسلمين، وأباح الحرمة وحرق الكعبة، وما أنا المتقلد أموركم، فشأنكم أمركم. اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ص ٢١٠. ابن خياط، تاريخ، ص ٢٥٥. الطبري، تاريخ الطبري، جـ ٣، ص ٣٦٤، ص ٣٧٩. المقدسي، البدء والتاريخ، جـ ٦، ص ١٦.

٦- مجهول(منسوب لابن قتيبة)، الإمامة والسياسية، جـ ٢، ص ١٨٩.

٧- المقريزي، المواعظ والاعتبار، جـ٢، ص٣٧٩.

٨- الجاحظ، رسالة فضل هاشم، ص ٤٤٠

٩- ابن كثير، البداية والنهاية، جـ ١٣، ص ٢٨٦

غير ذلك[1]، وكان يكنى بأبي يزيد، وكني حين ولي الخلافة بأبي ليلى، وكانت هذه الكنية للمستضعف من العرب، وفيه يقول الشاعر:

إني أرى فِتْنةً هاجتْ مَراجِلُها والملكُ بعد أبي لَيْلى لمن غلبا[2]

انتقلت الخلافة من الفرع السفياني إلى الفرع المرواني بعد مؤتمر الجابية[3] الذي كانت فيه الأهواء مختلفة، حتى أن مروان بن الحكم الذي تولى الخلافة بعد مؤتمر الجابية كان على وشك مبايعة ابن الزبير[4]، لولا أن عدل عن موقفه بعد تدخل عبيد الله بن زياد الذي خرج من العراق بعد طرد أهلها له حيث أشار عليه أن يبايعه بالخلافة[5].

ويرى الجاحظ أن مروان بن الحكم لا يستحق الخلافة، فقد كان من ضمن عوامل الفتنة التي حدثت زمن الخليفة عثمان بن عفان[6] - رضي الله عنه - " **ثم كتب لعثمان بن عفان رضي الله عنه مروان بن الحكم، فخانه في خاتمه**[7]**، وأشعل الرعية حربا عليه في ملكه** "[1]. ما فعله مروان بن

---

١ - ابن خياط، تاريخ ، ص ٢٥٥. اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ص ٢١٠. الطبري، تاريخ، جـ ٣، ص ٣٦٤، ٣٧٩. المقدسي، البدء والتاريخ، جـ ٦، ص ١٦.

٢- المسعودي، التنبيه والإشراف، ص ١١٢.

٣- الجابية بكسر الباء قرية من أعمال دمشق ، بها تل يسمى تل الجابية. انظر: القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، ص ٦٩. . صفي الدين، عبد المؤمن بن عبد الحق (ت: ٧٣٩هـ / ١٣٣٨م). مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، دار الجيل، بيروت: ١٩٩١م، جـ ١، ص ٣٠٤ (سيشار إليه فيما بعد: صفي الدين، مراصد الاطلاع).

عقد الكلبيون مؤتمرهم في الجابية وتشاوروا في أمر البيعة والخلافة، حيث رجحت كفة مروان. كانت أهم قرارات مؤتمر الجابية، عدم مبايعة ابن الزبير، واستبعاد خالد بن يزيد من الخلافة لأنه غلام والعرب لا تحب مبايعة الأطفال، ومبايعة مروان بن الحكم. انظر: البلاذري، أنساب الأشراف، جـ ٦، ص ٢٦٣، ابن خياط، تاريخ، ص ٢٥٣. الطبري، تاريخ، جـ ٣، ص٣٨٠.

٤- الطبري، تاريخ، جـ ٣، ص ٣٧٨

٥- دعا عبيد الله بمولى له فقال: إن أمير المؤمنين يزيد قد هلك، فما الرأي عندك؟ فرد عليه: إن الناس إن ملكوا أنفسهم لم يولوا عليهم أحدا من ولد زياد، وإنما ملكتم الناس بمعاوية، ثم بيزيد، وقد هلكا، وإنك قد وترت الناس، ولست آمن أن يثبوا بك، والرأي لك أن تستجير هذا الحى من الأزد. عندما قدم عبيد الله بن زياد من العراق قال لمروان: أنت كبير قريش وسيدها، فقام معه بنو أمية ومواليهم، فبايعوه بالجابية. الدينوري، الأخبار الطوال. ص ٢٨٥.الطبري، تاريخ الطبري، جـ ٣، ص ٣٧٨. ابن الجوزي، المنتظم، جـ ٦، ص ٢٧. للمزيد حول الموضوع انظر: ابن خياط، تاريخ ابن خياط، ص ٢٥٩. اليعقوبي. تاريخ اليعقوبي، جـ ٢، ص٢٩١، ص ٣٠٥. البلاذري، أنساب الأشراف، جـ ٦، ص ٢٦٣. ابن الاثير، الكامل، جـ ٤، ص١٤٣.

٦ - سميت بالفتنة لما فتنت به الناس، ولما امتحنت به دينهم وأخلاقهم وثباتهم على المبدأ والعقيدة. العش، الدولة الأموية والأحداث التي سبقتها، ص ٣٢.

٧ - أشار العديد من المؤرخين بناءً على هذه الرواية التي وردت عند الجاحظ، أن مروان هو الذي خان عثمان وكتب إلى والي مصر يأمره بقتل الوفد. ومن رواية عثمان يظهر نفيه أن يكون الخاتم خاتمه، مما يعني أن

الحكم في الإساءة إلى كبار الصحابة من نفي أبي ذر الغفاري، وضرب عمار، وضرب ابن مسعود ولسع علي بالكلام، حيث كان يتصرف بدون أمر عثمان - رضي الله عنه -. حتى خشي الناس أن باستطاعة مروان في أي وقت قتل أي صحابي متى شاء، وقد أشار بعض المؤرخين بأن مروان خان عثمان - رضي الله عنه - وأنه صاحب ذلك الكتاب المشؤوم الذي أفقد الناس الثقة بعثمان - رضي الله عنه -[٢].

كانت بيعة مروان بن الحكم في الجابية في ذي القعدة من سنة ٦٤هـ / ٦٨٣م[٣]. ويشير الجاحظ إلى سنة خلافته بعبارة مقتضبة "مر مروان بن الحكم في العام الذي بويع "[٤] وبتوليه الخلافة عمل على القضاء على مناوئة عبدالله بن الزبير[٥]. وفي الجانب الأخر بدأ يعد العدة لمبايعة ابنيه عبد الملك وعبد العزيز بالخلافة مستبعداً عمرو بن سعيد الأشدق وخالد بن يزيد بعد أن وعدهم في مؤتمر الجابية[٦] بالخلافة من بعده[٧] **" في هذه السنة أمر مروان بن الحكم بالبيعة لابنيه عبد الملك وعبد العزيز"** [٨]. ويرى الجاحظ أن خالد بن يزيد زهد في الخلافة بسبب حلمه

هناك تزويراً لخاتمه، فمروان ليس بحاجة في أن يزور الخاتم. انظر: البلاذري، أنساب الأشراف، جـ ٥، ص٥٥٥. العش، الدولة الأموية، ص ٤٦.

١- الجاحظ، رسالة ذم أخلاق الكتاب، جـ٢، ص ٦٠٦

٢- ظل مروان عند الخليفة عثمان، فنقم الناس ذلك على عثمان، وكانوا يرون أن كثيرا مما ينسب إلى عثمان لم يأمر به، وإنما هو رأي مروان. ابن الجوزي، المنتظم، جـ ٦، ص ٤٨. الذهبي، تاريخ الإسلام، جـ ٣، ص٤٣٠

٣- ابن خياط، تاريخ، ص ٢٥٣. الطبري، تاريخ، جـ ٣، ص ٤٢٣. ابن الأثير، الكامل، جـ ٤، ص ١٤٣. فوزي، الجيش والسياسة، ص٦٤.

٤- الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ٣، ص ١٠١

٥- ابن خياط، تاريخ، ص ٢٦٩.

٦ - عندما وصل مروان إلى الجابية، قام الضحاك بن قيس الفهري فاستمال الناس إليه، وانحاز عن مروان، والتقى الأشدق ومروان، فقال الأشدق لمروان: هل لك فيما أقوله لك فهو خير لي ولك. قال مروان: وما هو. قال: أدعو الناس إليك وآخذك لك على أن تكون لي من بعدك، فقال مروان: لا، بل بعد خالد بن يزيد بن معاوية، فرضي الأشدق بذلك، ودعا الناس إلى بيعة مروان فأجابوا، ومضى الأشدق إلى حسان بن مالك بالأردن، فأرغبه في بيعة مروان، فجنح لها. المسعودي، مروج الذهب، جـ ١، ص ٣٨٥. فوزي، تاريخ الدولة الأموية، ص ٥١

٧- ابن خياط، تاريخ، ص ١٦٢. الطبري، تاريخ، جـ ٣، ص ٦٥. ابن الأثير، الكامل، جـ ٤، ص ١٥٠. ابن الوردي، عمر بن مظفر(ت: ٧٤٩هـ / ١٣٤٨م). تاريخ ابن الوردي، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت: ١٩٩٦م، جـ١، ص١٦٧ (سيشار إليه فيما بعد: ابن الوردي، تاريخ ابن الودري).

٨- ابن خياط، تاريخ، ص ٢٦١. الطبري تاريخ، جـ ٣، ص ٤٢٣. ابن الأثير، الكامل، جـ ٢، ص ٢١٦

وحكمته "أما خالد بن يزيد بن معاوية فكان حكيما "[1] وهو ما استغله مروان بن الحكم في مبايعة ابنيه عبد الملك وعبدالعزيز[2].

ولما توفي مروان " بويع لولده عبد الملك بن مروان في اليوم الذي مات فيه "[3] وفي موضع أخر "فتوفي مروان وولي بعده ابنه عبد الملك بن مروان "[4]. وبتولية مروان العهد لابنيه حفظ الخلافة في البيت المرواني.

أراد عبد الملك عزل أخيه عبد العزيز عن ولاية العهد[5] وكان ذلك بنصيحة "عمران بن عصام العنزي[6] وهو الذي أشار على عبد الملك بخلع أخيه عبد العزيز والبيعة للوليد بن عبد الملك في خطبته المشهورة وقصيدته المذكورة "[7]. وفي رواية البلاذري أن عبد الملك بن مروان أرسل إلى أخيه "إن رأيت أن تصير هذا الأمر لابن أخيك وولدك"[8] يريد عبد الملك أن يجعل ولاية العهد للوليد بن عبد الملك ثم لأبي بكر بن عبد العزيز. فأبى عبد العزيز، فكتب إليه يسأله أن يجعلها للوليد من بعده، ويقول له: لولا أن الوليد أعز الخلق على أمير المؤمنين لم يسألك هذا له، فكتب إليه: "إني أرى في بكر بن عبد العزيز[9] مثل الذي ترى في الوليد"[10].

١- مقدمة تحقيق رسالة فضل هاشم، ص ٤٢

٢- جدد مروان البيعة لنفسه ولابنه عبد الملك بن مروان من بعده ثم عبد العزيز ابن مروان وذلك في أول سنة خمس وستين. فولي عبد العزيز العهد بعد عبد الملك بن مروان فمات قبله بمصر، وكان عبد الملك أراد خلعه وتولية الوليد ابنه فمات قبل ذلك. فبايع عبد الملك لابنيه الوليد وسليمان. ابن خياط، تاريخ، ص٢٦١، ص٢٨٩. البلاذري، أنساب الأشراف، جـ ٦، ص٣٣٣.

٣- الطبري تاريخ، جـ ٣، ص ٤٢٣. ابن الأثير، الكامل، جـ ٢، ص ٢١٧

٤- الطبري تاريخ، جـ ٣، ص ٤٢٤. ابن الأثير، الكامل، جـ ٢، ص٢٣٠

٥- نصحه قبيصة بن ذؤيب بأن لا يخلعه فلعل الموت يأتيه فيستريح منه وهذا ما كان. الطبري، تاريخ، جـ ٣، ص ٦٦٤. الجهشياري، الوزراء والكتاب، ص ٣٤. ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، جـ ٣، ص ٥٧.

قبيصة بن ذؤيب الخزاعي(١ - ٨٦ هـ / ٦٢٢ - ٧٠٥ م) صحابي، من الفقهاء. ولد في حياة النبي صلى الله عليه وسلم ثم كان على خاتم عبد الملك بن مروان بالشام وكان على الخاتم والبريد، وكان يقرأ الكتب إذا وردت ثم يدخل بها على عبد الملك، توفي بدمشق. ابن خياط، تاريخ، ص٢٩٩. الذهبي، تاريخ الإسلام، جـ ٦، ص ١٧١. الصفدي، الوافي بالوفيات، جـ ٧، ص٢٢٣.

٦- عمران بن عصام العنزي(ت: ٨٥ هـ/٧٠٤ م) خطيب وشاعر، اشتهر في أيام عبد الملك بن مروان. وخاطبه بأبيات يثني بها على الحجاج. ولما أمر المهلب بصنع الركب من الحديد بعد أن كانت من الخشب، مدحه في هذا، وفضل ضرب الحديد للركاب، على ضربه للدراهم. قتل في أيام الحجاج بعد أن خرج في ثورة ابن الأشعث. انظر: ابن خياط، تاريخ، ص ٢٨٢. البلاذري، أنساب الأشراف، جـ ٧، ص ٢٥٤.

٧- الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ١، ص ٢٤

٨- البلاذري، أنساب الأشراف، جـ ٧، ص ٢٥٣

٩ - ابن عبد العزيز الذي رأى والده أن له حق الخلافة مثل ما للوليد بن عبد الملك، وهي حيلة يريد منها عبد الملك عزل أخيه عبد العزيز عن ولاية العهد. الصفدي، الوافي بالوفيات، جـ ٦، ص ١٩٨.

مهدت وفاة عبد العزيز[2] الطريق لعبد الملك لتحقيق هدفه في تولية أبنائه العهد[3]. ولا يرى الجاحظ فرقاً في انتقال الخلافة من الفرع السفياني إلى الفرع المرواني في ظل استيلاء بني أمية، إذ أن معاوية في الأساس - كما يرى الجاحظ - استولى على الخلافة دون وجه حق، وبما أنها ما زالت في بني أمية فهي ليست لهم ولا يؤثر انتقالها من الفرع السفياني إلى الفرع المرواني في شيء[4].

تولى عبد الملك الخلافة بعد وفاة والده مروان، ثم تتابع أبناء عبد الملك على الخلافة من بعده، وقد أورد الجاحظ رد أبي إسحاق[5] على عبد الملك صراحة في استيلائه على الخلافة **"وإني والله ما أنا بالخليفة المستضعف وهو يعني عثمان بن عفان ولا أنا بالخليفة المداهن يعني معاوية ولا أنا بالخليفة المأبون يعني يزيد بن معاوية. قال أبو اسحق والله لولا نسبك من هذا المستضعف وسببك من هذا المداهن لكنت منها أبعد من العيوق[6] والله ما أخذتها من جهة الميراث ولا من جهة السابقة ولا من جهة القرابة ولا تدعى شورى ولا وصية "**[7]. وردت هذه الخطبة أيضا عند الجاحظ في رسالة فضل هاشم بقوله: **"وحسبك من جهله قيامه على منبر الخلافة قائلا إني والله ما أنا بالخليفة المستضعف، ولا بالخليفة المداهن، ولا بالخليفة المأفون. وهؤلاء سلفه وأئمته، وبشفعتهم قام ذلك المقام، وبتقديمهم وتأسيسهم نال تلك الرئاسة، ولولا القادة المتقدمة والأجناد المجندة والصنائع القائمة لكان أبعد خلق الله من ذلك المقام وأقربهم إلى الهلكة إن رام ذلك الشرف"**[8]. وعلى الرغم من توافق الروايتين في بعض العبارات لكن روايات الجاحظ في كتاب البيان تتسم بالتركيز على اللفظ دون المعنى، أما في رسالة فضل هاشم فتظهر حدة العبارات وقوتها، إذ أن الرسالة كتبت للحديث عن علي بن أبي

١- البلاذري، أنساب الأشراف، جـ ٧، ص ٢٥٣

٢ - كتب عبد الملك إلى أخيه: احمل لي خراج مصر، فكتب إليه عبد العزيز: يا أمير المؤمنين إنا قد بلغنا سنا لم يبلغها أحد من أهل بيتك، إلا كان بقاؤه بعدها قليلا، وإنا لا ندري أينا يأتيه الموت أولاً، فإن رأيت أن لا تغثث علي بقية عمري فافعل، فرق له عبد الملك وقال: لعمري لا فعلت ذاك ولا سؤت أخي. البلاذري، أنساب الأشراف، جـ ٧، ص ٢٥٣، ص ٢٥٤.

٣- ابن خياط، تاريخ، ص ١٨٣. مجهول (منسوب لابن قتيبة)، الإمامة والسياسية، جـ ٢، ص ٢٢٢. الطبري، تاريخ، جـ ٣، ص٦٦٤. ابن الأثير، الكامل، جـ ٤، ص ٦٤٢.

٤- الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ٢، ص ٩٩. الجاحظ، رسالة الحكمين، ص ٣٤٤

٥- عمرو بن عبد الله بن علي بن أحمد الهمداني (٣٣ - ١٢٧ هـ / ٦٥٣ - ٧٤٥ م)من أعلام التابعين الثقات. كان شيخ الكوفة في عصره. وكان من الغزاة المشاركين في الفتوح. أدرك عليا، ورآه يخطب، وقال: رأيته أبيض الرأس واللحية. غزا الروم في زمن زياد ست غزوات. ابن الجوزي، المنتظم، جـ ٧،ص ٢٦٣-٢٦٤. الذهبي، تاريخ الإسلام، جـ ٨، ص ١٩٠.

٦ - العيوق نجم أحمر مضيء في طرف المجرة الأيمن يتلو الثريا لا يتقدمه، لسان العرب، جـ ١٠، ص٢٨٠.

٧- الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ٢، ص ٩٨.

٨ - الجاحظ، رسالة فضل هاشم، ص ٤٣٤.

طالب – رضي الله عنه- وتعديد صفاته مثل الفقه والمنشأ الكريم، وصفاته الحميدة[1]. وهذا يعكس الحالة السياسية السائدة في تلك الفترة والتي أعلنت فيها البراءة من معاوية[2]، كما واشتدت عداوة العباسيين نحو الأمويين منذ أعلن المأمون الرضا من علي حيث كتب الجاحظ الرسالة في تلك المرحلة[3].

بويع الوليد بن عبد الملك[4] بالخلافة بعد وفاة أبيه عبد الملك، وقد حاول الوليد في أول خطبة التأكيد على أنّ الخلافة جاءته هبة من الله **"ولما مات عبد الملك بن مروان صعد المنبر الوليد ابنه فحمد الله وأثنى عليه ثم قال لم أر مثلها مصيبة ولم أر مثلها ثوابا موت أمير المؤمنين والخلافة بعده"**[5]. ورغم موقف السلبي من الخلافة الأموية، إلا أن الجاحظ لم يخف إعجابه بالوليد بن عبد الملك وأورد خطبته في البيان والتبيين[6].

كان الوليد غير راض عن تولية أخيه سليمان الخلافة من بعده، فسار على خطى سابقيه وفكر في تولية العهد لابنه عبد العزيز وعزل أخاه بعد أن أشار عليه خواصه بذلك، وأراد التوجه إلى فلسطين[7] لعزله بالقوة لولا أن عاجلته المنية **" وفي هذه السنة كان الوليد أراد الشخوص إلى أخيه سليمان لخلعه وأراد البيعة لابنه من بعده وذلك قبل مرضته التي مات فيها"**[8].

---

١ - الزويري، الإمامة، ص ٨

٢ - البغدادي، الفرق بين الفرق، ص ١٥٧. المقريزي، المواعظ والاعتبار، جـ ٣، ص ١٠٢. بلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ٣٩١. الزويري، الإمامة، ص ٣٠. هياجنه، الجاحظ مؤرخاً، ص٤٧

٣ - بلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ٣٩١ . الدروبي، آثار الجاحظ، ص ١٦٣. الزويري، الإمامة، ص ٣٠. هياجنه، الجاحظ مؤرخاً، ص٤٧.

٤ - سار عبد الملك على نهج والده، فبايع بولاية العهد من بعده لأربعة من أبنائه على التوالي: الوليد، وسليمان، ويزيد، وهشام. فقد أخذ على الوليد وسليمان أن يبايعا يزيد بن عبدالملك ولمروان بن عبد الملك من بعده، لكن مروان مات في خلافة أخيه سليمان اما يزيد فتولى الخلافة سنة ١٠١هـ / ٧١٩م. ابن خياط، تاريخ، ص٢٠٦. الطبري، تاريخ، جـ ٤، ص ٤٩.

٥- الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ١، ص ١٧٦

٦- المصدر نفسه، ص ١٧٦

٧ - ولى الوليد أخاه سليمان على فلسطين، فظل واليا عليها حتى أتاه نعي الوليد. البلاذري، أنساب الأشراف، جـ٨، ص ٩٩، ص ٢٨٣.

٨- الطبري، تاريخ، جـ ٤، ص ٣٠. ابن الأثير، الكامل، جـ ٥، ص ٥.

يشير الجاحظ إلى مدى حرص الأمويين على موضوع التوريث ما ذكره عن الوليد بن عبد الملك الذي قال: **"لولا بيعة في أعناق الناس ليزيد بن عاتكة لجعلت هذا الأمر شورى بين صاحب الأعوص[1] إسماعيل بن أمية بن عمرو بن سعيد الأشدق[2]، وبين أحمس[3] قريش القاسم بن محمد بن أبي بكر[4]، وبين سالم بن عبد الله بن عمر[5] "**[6]. كما أشار الجاحظ للأشدق في كتاب البيان بقوله: **"ثم من الخطباء: عمرو بن سعيد، وهو الأشدق، يقال إن ذلك إنما قيل لتشادقه في الكلام"**[7] ومن خلال الروايتين يلاحظ كيف يستعين الجاحظ بأساليب اللغة ليوظفها خدمة لهدفه، فقد هدف في الرواية الأولى خدمة غرض سياسي يتجلى في التشنيع على بني أمية في أن الخلافة صارت ملكا يورث، أما الرواية الأخرى فيتضح بها إعجاب الجاحظ ببلاغة الأشدق موظفا النص بأسلوب صريح لا يحتوي على توريه أو لمز، حتى وإن كان للجاحظ موقف منه **"لما بلغ عبد الله بن الزبير قتل عبد الملك بن مروان عمرو ابن سعيد الأشدق، قام خطيبا. فقال: إن أبا الذبان قتل لطيم الشيطان، كذلك نولي بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون"**[8]

---

١ - الأعوص موضع شرقي المدينة المنورة. التميمي، الفتنة، ص ٥٨. الطبري، تاريخ، جـ ٢، ص ٦٩. ابن مسكويه، تجارب الأمم، جـ ١، ص ٤٤٠. ابن الجوزي، المنتظم، جـ ٥، ص ٥١.

ورد عند ابن سعد في الطبقات بقوله: "الأعوص إسماعيل بن عمرو بن سعيد بن العاص"، جـ ٥، ص ٣٤٥. كما أشار البلاذري له بقوله: " ومنهم إسماعيل بن عمرو بن سعيد وهو صاحب الأعوص الذي قال فيه عمر بن عبد العزيز: لو أن لي من الأمر شيئا لوليت صاحب الأعوص" أنساب الأشراف، جـ ٥، ص ٤٥٥.

كما ذكره ابن عساكر في تاريخ دمشق: "وقال عمر بن عبد العزيز لو كان إلي من الأمر شيء يعني أمر الخلافة بعده لوليتها القاسم بن محمد أو صاحب الأعوص يعني إسماعيل بن عمرو" جـ ٩، ص ٣٣.

مما يعني أن الاسم الذي ورد عند الجاحظ ليس إسماعيل بن أمية بن عمرو بن سعيد الأشدق وإنما الأعوص إسماعيل بن عمرو بن سعيد بن العاص.

٢ - الأشدق: لقب عمرو بن سعيد بن العاص. كان فقيها وسكن مكة، سار إلى معاوية بعد وفاة والده، استخلفه عبدالملك بن مروان على دمشق عندما توجه إلى العراق. فوثب عمرو على دمشق، وبايعه الناس. فلما توطدت العراق لعبد الملك، وقتل مصعباً، رجع وحاصر عمر بدمشق، وأعطاه أمانا مؤكدا، فاغتر به عمرو. ثم بعد أيام، غدر به، وقتله. الكلبي، جمهرة النسب، جـ ١، ص٨. السمعاني، الأنساب، جـ ١، ص٢٠٩. الذهبي، سير أعلام النبلاء، جـ ٣، ص٤٤٩.

٣ - الشديد والأحمس: المتشدد على نفسه في الدين. لسان العرب، جـ ٦، ص ٥٦.

٤ - القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق، كان دينا، روى عن أبي هريرة، وابن عباس، وعائشة. ابن خياط. أبي عمر خليفة بن خياط بن أبي هريرة(ت: ٢٤٠هـ / ٨٥٤م) طبقات خليفة بن خياط، تحقيق أكرم ضياء العمري، ط٢، دار طيبة، الرياض:١٩٨٢م، ص٢٤٤ (سيشار إليه فيما بعد: ابن خياط، الطبقات). ابن الجوزي، المنتظم ، جـ ٧، ص ١٢٣.

٥ - سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب أمة أم ولد يكنى أبا عمر وكان من خيار المسلمين وعبادهم وفقهائهم توفي سنة سبع ومائة. البلاذري، أنساب الأشراف، جـ ١٠، ص ٤٥٦. ابن خياط، الطبقات، ص ٢٤٦.

٦- الجاحظ، رسالة فضل هاشم، ص٤٣٣

٧ - الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ١، ص ٢٥٨.

٨ - المصدر نفسه، جـ ٢، ص ٦١.

أما الخليفة سليمان بن عبد الملك فعندما حضرت منيته اختار عمر بن عبدالعزيز للخلافة[1]، وهو ما يفخر به بنو أمية لأن سليمان لم يتبع العرف السائد بتوريث الخلافة بل اختار شخصاً أموياً مروانياً رأى فيه الكفاءة فهم يعدونها من حسناتهم " **ومنا سليمان بن عبد الملك الذي هدم الديماس[2] ورد المسيرين[3] وأخرج المسجونين[4] وترك القريب واختار عمر بن عبد العزيز** "[5] وكان اختيار سليمان لعمر بن عبد العزيز بعد مشورة رجاء بن حيوة الكندي[6] مؤدب سليمان[7].

أشار الجاحظ إلى تلكؤ مروان بن محمد في بيعته ليزيد بن الوليد " **قال لما بايع الناس يزيد بن الوليد وأتاه الخبر عن مروان بن محمد ببعض التلكؤ والتحبس. كتب إليه، بسم الله الرحمن الرحيم. من عبد الله أمير المؤمنين يزيد بن الوليد، إلى مروان بن محمد. أما بعد فإني أراك تقدّم رجلا وتؤخر أخرى، فإذا أتاك كتابي هذا فاعتمد على أيهما شئت. والسلام**" [8]. هذه الرواية لم يقصد بها الجاحظ الجانب السياسي وإنما الجانب اللغوي والبلاغي. فهذه الروايات تدل على صفة البلاغة التي اتصف بها بنو أمية والتي أعجب بها الجاحظ وأشاد بها في كتاب البيان بقوله معلقا على تلك الرواية "**وها هنا مذاهب تدل على أصالة الراي، ومذاهب تدل على تمام النفس، وعلى الصلاح والكمال، لا أرى كثيرا من الناس يقفون عليها**"[9].

غدت مسألة ولاية العهد إحدى سمات وتقاليد الخلافة الأموية التي يجب أن لا يغفلها الخليفة، ومن ذلك الوقت صار كل خليفة في حياته يسمي ولياً للعهد واستمر هذا الحال حتى

١- مؤلف مجهول. العيون والحدائق في أخبار الحقائق، تحقيق عبد العزيز الدوري وعبد الجبار المطلبي، ط٢، دار الطليعة، بيروت: ١٩٩٧م، ص ٣١ (سيشار إليه فيما بعد: مجهول، العيون).

٢ - الديماس سجن كان زمن الحجاج، قام الخليفة سليمان بهدمه وإخراج المسجونين منه. ابن قتيبة، المعارف، ص٨٢

٣ - المسيرين الذين سيرهم عثمان بن عفان في خلافته من الكوفة إلى دمشق. البلاذري، أنساب الأشراف، جـ٥، ص ٥٣٢. ابن عساكر، تاريخ دمشق، جـ٢٣، ص ٣.

٤ - أفرج عن المسجونين الذين كانوا بالبصرة، ابن قتيبة، المعارف، ص٨٢.

٥- الجاحظ، رسالة فخر هاشم على عبد شمس، ص٤٤١

٦ - من العلماء ومن جلة التابعين ، وكان يجالس عمر بن عبد العزيز، ومما قام به أنه عمل على تأخير هشام عندما توفي سليمان، وعقد الخلافة لابن عمه عمر بن عبد العزيز توفي في أول خلافة هشام. الدينوري، الأخبار الطوال، ص٣٢٩-٣٣٠. الطبري، تاريخ، جـ ٤، ص ٥٩. ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ٢، ص٣٠١. الذهبي، سير أعلام النبلاء، جـ ٤، ٥٥٧-٥٦١. الصفدي، الوافي بالوفيات، جـ٦، ص١.

٧- الصرايرة، سليمان سالم. التكوين الثقافي لعبد الملك بن مروان وولديه الوليد وسليمان(٦٥هـ - ٩٩هـ)، مؤتة للبحوث والدراسات، مجلد ٢٥، العدد ٥، سلسلة البحوث الإنسانية والاجتماعية، الأردن: ٢٠١٠م، ص٨٨ (سيشار إليه فيما بعد: الصرايرة، التكوين الثقافي).

٨ - الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ١، ص ١٣١

٩ - المصدر نفسه، ص ٢٤٨.

سقوط دولة بني أمية[1]. ويبدو التناقض في موقف الجاحظ من مسألة ولاية العهد أنه عاب على الأمويين تولية العهد لمن لا يستحق وفي المقابل أعطى شرعية لفكرة الاستخلاف باعتبارها طريقة لإقامة الإمامة، ويهدف من ذلك تعزيز موقف العباسيين في مسألة ولاية العهد. كما أن الغاية التي قصدها الجاحظ من ذلك إبراز أخطاء الأمويين في حق المسلمين وحق آل علي[2].

وسعى الجاحظ في التأكيد على مخالفة الأمويين لما سار عليه الخلفاء الراشدون وخاصة الخليفة عمر بن الخطاب- رضي الله عنه - **"ثم أن عمر بعد ذلك جعلها شورى بين ستة وجعل إليهم الخيار، وسلم ذلك جميع المسلمين، فيهم الزهري والتيمي والهاشمي والأموي والأسدي، على أنها إن وقعت للأسدي لم يكن منكرا عند الجميع، وكذلك الزهري والأموي"**[3]. وهذا النهج هو الذي ابتعد عنه بنو أمية منذ جعلوا الخلافة وراثية في بيتهم، وبين أبنائهم. إذ أصبح الخليفة يعين ولي عهده ويأخذ البيعة له من وجهاء القوم وكبار رجال الدولة في حياته، كما كانت تؤخذ البيعة في المدن والأمصار من قبل الوالي نيابة عن الخليفة. فجمع النظام مساوئ الحكم الفردي، فحالما تؤخذ البيعة كانت موافقة الشعب لا تمثل أهمية بغض النظر عن الاختيار سواء كان شرعيا أم مغتصباً[4].

وعند الانتقال إلى أسباب سقوط الدولة الأموية، فعلى الرغم من تعددها[5]، إلا أن الجاحظ حددها بالآتي: فالعامل الأول تمثل في حرصهم على الأرومة العربية لأم ولي العهد واستبعاد أبناء الإماء عن السلطة والخلافة وعدم الاستفادة من قدراتهم حتى وإن كانوا أكفأ. فقد عرض ذلك في رسالة صناعة القواد والتي أشاد فيها بمسلمة بن عبد الملك بن مروان الذي لم يكن لعبد الملك ابن أكثر سداداً منه رأياً، ولا أذكى عقلاً، ولا أشجع قلباً، ولا أسمح نفساً ولا أسخا كفاً[6]، وله من الصفات الخلقية الكثيرة مثل ما ذكره الجاحظ بأنه يكره اللحن **"قال مسلمة بن عبد الملك: إن الرجل ليسألني الحاجة فتستجيب نفسي له بها، فإذا لحن انصرفت نفسي عنها "**[7] ولكنه

١- ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، جـ ٣، ص ٣٣، ص ٥٧. باحشوان، نظام ولاية العهد، ٩٦

٢ - الزويري، الإمامة، ص٥٧، ص٥٩

٣- الجاحظ، العثمانية، ص ٢٤٨

٤ - ابن خلدون، المقدمة ، ص ١٠٧- ١٠٨.

٥ - حول تداعيات سقوط دولة بني أمية انظر الطبري، جـ ٤ ، ص ٣٣٩- ٣٥٠.

٦- ابن عبد ربه، أحمد بن محمد(ت: ٣٨٢ هـ / ٩٩٢م). العقد الفريد، تحقيق مفيد محمد قميحه، المكتبة العصرية، بيروت: ١٩٨٣م، جـ ٧، ص ١٤٥ (سيشار إليه فيما بعد: ابن عبد ربه، العقد الفرد).

٧- الجاحظ، الرسائل الأدبية، رسالة صناعة القواد، ص ٣١٤

استبعد من الخلافة ومن ولاية العهد لأنه كان ابن أمة، ولأن بني أمية كانوا يتشاءمون من ترشيح أبناء الإماء إلى منصب الخلافة خشية زوال ملكهم على يد ابن أم ولد.

"لا تُلجِـــمُن ذناب الناسِ أنفُسكُمْ إن الذناب إذا ما أُلحِمتْ رتعـــــوا[1]

لا تبْقرُن بأيديكم بطونكُـــــــمُ فثم لا حسْرةٌ تغني ولا جـــــــزعُ"[2]

أما العامل الثاني فيتمثل في ما قام به مروان بن محمد من تغيير الولاءات نحو القيسية حيث ساهم بشكل كبير في سقوط دولة بني مروان **"ألا ترى أن مروان بن محمد لما استبدل قيس عيلان الجند[3] بقيس عيلان الجند[4]، من أبناء قحطان، كيف ظهر انتشار أمره واضطرب حبله واختلفت الكلمة وتقطع النظام وانحلت العقد وأدبر الملك وركدت الريح "[5]** وهنا يظهر الجاحظ دور العصبية في خلافة مروان الذي سار سيرة سلفه فتعصب للقيسية. فقد أطلت القبلية برأسها في عهده من جديد. فاحتدم الصراع بين القبائل المضرية والقبائل اليمانية[6].

وقد سعى مروان منذ بيعته في دمشق، في تهدئة خواطر الناس، وأن يبعث الثقة في النفوس، فلما بايعه الناس عرض عليهم أن يختاروا بأنفسهم من يرضون من الولاة لولايات الشام الرئيسة، يقول الطبري: **"فامرهم أن يختاروا لولاية أجنادهم، فاختار أهل دمشق زامل بن عمرو**

١- أي لا تمكنوا الناس منكم بضعفكم وتفرق كلمتكم ولا تخلطوا أمركم بين الناس، حتى إذا ما رأوا منكم ضعفاً انقضوا عليكم. لسان العرب، جـ ١٤، ص٤٣٤

٢- الطبري، تاريخ، جـ ٤، ص٢١٠.

٣- ذكر البلاذري أن قيس بن الناس. ودهمان بن الناس، هم أهل بيت في قيس. وحضن عيلان وهو عبد كان لمضر على الناس فسمي الناس به، فقيل قيس عيلان وإنما هو قيس بن الناس، ويقال بل حضن عيلان قيسا، فقيل قيس بن عيلان، وقيس عيلان. أنساب الأشراف، جـ ١٣، ص٩٥.

٤- تكرر ذكر قيس عيلان الجند والذي اراد ذكره الجاحظ هنا هو الياس أخو قيس، حيث كانت قيس عيلان إلى جانب صف مروان، وقد أكد ذلك الطبري بقوله: " وكانت القيسية مع مروان لأنه طلب بدم الوليد وأخوال الوليد من قيس" كما يقول نصر بن سيار في ذلك شعراً: أنا ابن خندف تنميني قبائلها ... للصالحات وعمي قيس عيلانا. الطبري، تاريخ، جـ ٤، ص ٢٨٦، ٢٩٦

٥- الجاحظ، رسالة الحكمين، ص ٣٤٨

٦ - قام معاوية بالموازنة بين القيسية واليمنية في بلاد الشام فقد كان يقف في الوسطين بين الطرفين، لكن عندما حدثت ثورة عبدالله بن الزبير انقسم الناس بين القيسية التي أرادت مبايعته بقيادة الضحاك، وبين اليمنية الذين أرادوا مبايعة مروان بن الحكم. مما أدى إلى المواجهة بينهم في معركة مرج راهط سنة ٦٤هـ / ٦٨٣م، والتي أدت إلى مقتلة كبيرة من الطرفين، ثم سار خلفاء بني أمية بتقريب أحدهم على الأخر حتى خلافة مروان بن الحكم الذي تعصب للقيسية. انظر: البلاذري، أنساب الأشراف، جـ ٩، ص٢٢٨. الطبري، تاريخ، جـ ٣، ص ١٩٢.

الجيراني، وأهل حمص عبد الله بن شجرة الكندي، وأهل الأردن الوليد بن معاوية بن مروان، وأهل فلسطين ثابت بن نعيم الجذامي"[1]

وبيَّنَ الجاحظ أن ما لحق مروان بن محمد من الظلم مما جعله السبب في سقوط دولة بني أمية، فقد تسلم الخلافة في فترة كانت الدولة فيها قد بدأت في مرحلة السقوط **"ثم لم ينزعوه إلا من يد أشجعهم شجاعة وأشدهم تدبيرا وأبعدهم غورا ومن نشأ في الحروب وربى في الثغور ومن لا يعرف إلا الفتوح وسياسة الجنود "**[2] فمروان لم يتسلم الخلافة إلا والثورات قد أحاطت به من الشرق والغرب[3]، فكلما أخمد ثورة قامت أخرى، وعلى كل المعارك التي خاضها مروان وانتصر فيها، لكن الناس لا يذكرون له سوى معركة الزاب[4] التي انهزم فيها جيش بني أمية[5].

وفي خلافة مروان بن محمد كانت مرحلة التخطيط السري للدعوة العباسية قد وصلت مرحلة النضج، إذ تمكنوا من قبض زمام الأمور، فواجه مروان دسائس المفسدين والخارجين على دولة بني أمية إلى أن انتهى به الأمر مقتولاً في دير بمصر بعد هروبه من جنود العباسيين[6]، قتله صالح بن علي الذي ذكره الجاحظ في معرض حديثه عن ادعاء بني أمية البسالة **"صالح بن علي وهو الذي تبع مروان بن محمد إلى مصر حتى قتله"** [7] إذ إن العباسيين استمروا في تتبع مروان حتى دخل مصر، وبه انتهى عصر الخلافة الأموية في المشرق سنة ١٣٢هـ / ٧٥٠ م والذي دام أكثر من ٩٠ سنة [8].

ويشير الجاحظ في رواية أن مروان عندما أحيط به في مصر كان يحمل برداً وقضيباً للرسول صلى الله عليه وسلم فدفع بهما إلى خادمه وأمره أن يدفنهما في تلك الرمال وهي البردة التي لبسها الخلفاء العباسيون والتي تمثل رمزا دينيا **"وقد كان مروان بن محمد حين أحيط به**

١- الطبري، تاريخ، جـ ٤، ص٢٨٠

٢- الجاحظ، رسالة فضل هاشم، ص ٤٢٤

٣- الطبري، تاريخ، جـ ٤، ص ٢٨٠ وما يليها.

٤- معركة الزاب: وقعت في ١١ من جمادى الآخرة عام ١٣٢ هـ / ٢٥ يناير ٧٥٠م قرب نهر الزاب الأكبر، وهو أحد روافد نهر دجلة، ويقع في شمال العراق. وقعت المعركة بين عبد الله بن علي بن عبد الله وهو عم أبو العباس عبد الله السفاح ومروان بن محمد الخليفة الأموي. اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ص ٣٧٦. ابن خياط، تاريخ، ص٤١٤، الطبري، تاريخ، جـ ٤، ص ٣٥٢، ٣٥٣

٥- ابن خياط، تاريخ، ص ٤٠١

٦- الطبري، تاريخ، جـ ٤، ص٣٥٦

٧- الجاحظ، رسالة فضل هاشم، ص ٤٥٠

٨- الطبري، تاريخ، جـ ٤، ص ٣٥٠ وما يليها. ابن الأثير، تاريخ، جـ٢، ص٤٩٢. الذهبي، سير أعلام النبلاء، جـ ٥، ص ٣٧٤. المقريزي، المواعظ، جـ ٢، ص٤٧٨.

دفع البرد والقضيب إلى خادم له، وأمره أن يدفنهما في بعض تلك الرمال، ودفع إليه بنتا له، وأمره أن يضرب عنقها. فلما أخذ الخادم في الأسرى قال: إن قتلتموني ضاع ميراث النبي صلى الله عليه وسلم، فأمنوه على أن يسلم ذلك لهم"[1].

كما أورد الجاحظ في كتاب الحيوان شعراً قيل في نهاية مروان بن محمد " وقال رجل من همدان، يقال له الضحاك بن سعد[2]، يهجو مروان بن محمد بن مروان بن الحكم، واشتق له اسما من الكلب فجعله كلبا فقال:

لج الفرار بمروان فقلت له ... عاد الظلوم ظليما همه الهرب

أين الفرار وترك الملك إن قبلت ... منك الهوينى فلا دين ولا أدب

فراشة الحلم فرعون العذاب، وإن ... يطلب نداه فكلب دونه كلب"[3]

ثالثاً: صورة الخلفاء الأمويين وسياستهم

أشار الباحث سابقاً إلى غياب صفة الحياد في تناول الجاحظ لتاريخ بني أمية، فأحيانا يشيد بهم خاصة في الجانب البلاغي والخطابي كما في كتابه البيان، وأحيانا أخرى يتنقصهم كما في رسائله الحكمين والنابتة وفضل هاشم. كما يلاحظ أنه غلبت على كتابات الجاحظ نحو بني أمية جانب التقليل والتنقيص طوال الفترة الزمنية التي كانت فيها الدولة العباسية مناهضة العداء لبني أمية والتي امتدت من ١٩٨ - ٢٣٢هـ / ٨١٣-٨٤٦م، والتي فيها وضع الجاحظ جل كتبه. وتعد الفترة التي عملت فيها الخلافة العباسية على التقارب مع العلويين مبرراً للجاحظ نحو توجيه سهامه للدولة الأموية التي يرى أنها سلبت العلويين حقهم في الخلافة.

تعد رسالة النابتة من أشد الرسائل التي تناول فيها الجاحظ بني أمية وشنع عليهم[1]، وخاصة معاوية الذي يرى أنه سبب ما حدث من مصائب للمسلمين والمتمثلة في حرب صفين

١- الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ٣، ص ٤٧

٢- لم يعثر الباحث على ترجمته في أي من كتب التراجم. وردت هذه الرواية عند ابن العمراني "وكان معه خادم يختص به فقدم ليقتل فقال: لا تقتلوني، فأنا أفتدي نفسي. قالوا: بماذا؟ قال: بميراث النبوة فإنه عندي قيل له: وما ميراث النبوة؟ قال: البردة والقضيب والخاتم فقالوا: أحضره فأحضر ذلك وسلمه إليهم فخلوا عنه وحملوا البردة والقضيب والخاتم إلى الكوفة وسلموها إلى أبى العباس السفاح" ابن العمراني، محمد بن علي بن محمد(ت: ٥٨٠هـ / ١١٨٤م). الإنباء في تاريخ الخلفاء، تحقيق قاسم السامرائي، ط١، دار الآفاق العربية، القاهرة: ٢٠٠١م، ص ٥٣ (سيشار إليه فيما بعد: العمراني، الإنباء).

٣- الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ١، ص ١٧٤

ومقتل الحسين بن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه- ، ثم ما تلا ذلك من تنكيل بآل علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) . مما جعل الجاحظ يصب جام اتهاماته في الرسالة على معاوية، كما أن تشنيع الجاحظ على بني أمية بلغ حداً أن اتهمهم بالكفر، متجاهلا كل فضل لهم في الإسلام وكل ما ساهموا به منذ بداية الدعوة[٢]. فجاءت رسالة النابتة تعبيرا عن توجه الدولة الجديد المتمثل في العداء لبني أمية، كما تعد تصريحا من الجاحظ في موالاته للعباسيين سياسيا وفكريا[٣]، وتبنيه موقف السلطة واستعداده للدفاع عنها[٤]، كما تمثل موقفه في مهاجمة الأمويين من خلال رسائله ومصنفاته الأخرى[٥].

وقد علل الجاحظ أسباب موقفه المعادي لبني أمية على النحو التالي من ذلك: جعل خراج مصر لعمرو بن العاص " **وإطعام عمرو بن العاص خراج مصر**"[٦] إذ أن خراج مصر في ذلك الوقت كان يبلغ ضعف خراج بلاد الروم إذا جمعت أبواب المال من البلاد جميعا، ويشير الجاحظ إلى خراجها الضخم الذي يدل على خصبها والبالغ أربعة آلاف ألف دينار[٧]. حيث لجأ معاوية إلى ترغيب عمرو بن العاص بمصر وإن كانت بعض المصادر ترى أن عمرو بن العاص اشترط ولاية مصر على معاوية ليقف إلى صفه في حربه مع علي[٨].

يعرض الجاحظ مدى حرص عمرو بن العاص على ولاية مصر بقوله: "**فلما صارت مصر في يدك تتبعك فيها بالعزل والتنقص، حتى لو أن نفسك فيها ألقيتها إليه** "[٩]. لقد فتح عمرو بن العاص مصر في سنة ٢٠هـ / ٦٤٠م. وظل والياً عليها حتى وفاة عمرو بن الخطاب، إذ عزله عنها الخليفة عثمان بن عفان[١٠] - رضي الله عنه -. فالجاحظ يحلل رغبة عمرو بن العاص في

EL-'ATTAR, THOUGHT OF AL-JÄHIZ ,p٢٠٣. - ١

٢ - الجاحظ، رسالة النابتة، ص٢٤٤.. الدروبي، آثار الجاحظ، ص ١٢٤.

٣ - نوري، الجاحظ، ص ٨

٤ - الزويري، الإمامة، ص٣٩٠.

٥ - المرجع نفسه، ص ٣٩

٦- الجاحظ، رسالة النابتة، ص٢٤٥.

٧- الجاحظ، رسالة في الجد والهزل،، ص ٢٣٤. في مقدمة تحقيق رسالة الأوطان، أخطأ المحقق إذ ذكر أن خراج مصر اربعة آلاف دينار، ص ١.١٥

٨- قال عمرو بن العاص مخاطبا معاوية: إني قصدت إليك لتجعل لي في أمرك هذا حظا إذا بلغت إرادتك، ولأن تشركني في الرأي والتدبير. فقال له معاوية : نعم ونعمة عين، قد جعلت لك ولاية مصر. البلاذري، أنساب الأشراف، جـ ٢، ص ٢٨٢. انظر: الدينوري، الأخبار الطوال، ص ١٥٦. اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ص ٢٨٣. الطبري، تاريخ، جـ ٣، ص ١٢٨.

٩- الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ٢، ص ٢٠٦

١٠- ابن خياط، تاريخ، ص ١٤٢، ١٤٣، ١٥٦. ابن أعثم الكوفي، الفتوح، ص ٣٥٦.

تولي مصر لمعرفته بأحوالها ومقدار خراجها وما بها من الخير. كما أن عمرو بن العاص طلب من معاوية "**الاستئثار بالفيء** "[1]. ولم يكن معاوية كما يظهر الجاحظ ذلك يدقق في اختيار الولاة إلا حسب ما تتحقق مصلحته في الخلافة، فتعيين الولاة يتم حسب " **اختيار الولاة على الهوى** "[2].

إن النابتة الذين ظهروا بعد مقتل الخليفة عثمان - رضي الله عنه - عادوا في عهد الدولة العباسية رغبة في إحياء دولتهم، مما جعل الجاحظ مدفوعا من السلطة يوجه لهم رسالة أطلق عليها النابتة[3]. وبالتالي كان على الجاحظ أن يتناول في رسالته كل ما يتعلق بالدولة الأموية ورموزها ومن ضمنهم معاوية " **وقد أربتْ عليهم نابتة عصرنا، ومبتدعة دهرنا فقالت: لا تسبوه فإن له صُحبة؛ وسب معاوية بدعة، ومن يبغضْه فقد خالف السنة فزعمت أن من السُنة ترك البراءة ممن جحد السُنة** "[4].

تلاحقت تهم الجاحظ لبني أمية من ذلك إيراده مقتطفات من خطبة أبي حمزة[5] التي قالها في معاوية وبني أمية، وما أوردها الجاحظ إلا من باب رغبته في التنقيص منهم، فعادة الجاحظ عندما لا يعجبه حدث يسكت عنه، لكن عندما يذكره حتى ولو بلسان غيره فهو مما يوافق عليه ويؤيده " **ثم ولي معاوية بن أبي سفيان لعين رسول الله وابن لعينه، فاتخذ عباد الله خولا، ومال الله دولا، ودينه دغلا، ثم مضى لسبيله، فالعنوه لعنة الله**"[6]. وقد وردت الخطبة في البيان هادفا بذلك إلى تبيين مدى بلاغتها وكذلك في التعريض ببني أمية، إذ كيف يعقل أن يلعن الرسول صلى الله عليه وسلم مع ما عرف عنهم من أدوار في خدمة الإسلام، ثم موقف الرسول صلى الله عليه وسلم من أبو سفيان أثناء فتح مكة وما تلى ذلك، وموقف الخلفاء الراشدين من معاوية.

يشير الجاحظ إلى ما أحدثه معاوية من تغيير وتبديل في الخلافة بعد بساطتها، فأحدث أمور الملوك، فكان ينقده لما غير وبدل في الخلافة عما كانت عليه في عهد الخلفاء الراشدين

١- الجاحظ، رسالة النابتة، ص٢٤٥.

٢- المصدر نفسه، ص ١٧

٣ - الزويري، الإمامة، ص ٣٩

٤- الجاحظ، رسالة النابتة، ص٢٤٦.

٥- أبو حمزة المختار بن عوف. كان قائداً للإمام طالب الحق عبد الله بن يحيى الكندي. الذي بويع بالإمامة في اليمن سنة ١٢٩هـ/ ٧٤٦م وقد خضعت له اليمن والحجاز في أواخر الدولة الأموية، كان من المؤسسين لدولة الإمامة في اليمن وحضرموت حينما بعثه شيخه أبو عبيده مع صاحبه بلج بن عقبة نجدة لأهل حضرموت فبايعا عبد الله بن يحيى الكندي(طالب الحق) بالإمامة. ابن خياط، تاريخ، ص ٣٨٥. الطبري، تاريخ، جـ ٤، ص٣٠٢. الذهبي، تاريخ الإسلام، جـ ١٨، ص ٢٧. انظر أيضاً: فوزي، الخلافة الأموية، ص ٢١٨ وما يليها.

٦- الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ٢، ٨٤

حتى حولها معاوية من الخلافة إلى المُلك " **والعام الذي تحولت فيه الإمامة ملكا كسرويا، والخلافة غصبا قيصريا**"[1].

يصور الجاحظ تحول الخلافة بعد أن كانت شورى حتى انتقلت إلى بني أمية فصارت ملكاً عضوضاً[2] " **استوى معاوية على الملك، واستبد على بقية الشورى، وعلى جماعة المسلمين من الأنصار والمهاجرين، في العام الذي سموه عام الجماعة، وما كان عام جماعة بل عام فرقة وقهر، وجبرية وغلبة ...،ولم يعد ذلك أجمع الضلال والفسق، ثم مازالت معاصيه من جنس ما حكينا** "[3]. إن بسبب خلو الساحة بعد مقتل علي بن أبي طالب - رضي الله عنه- تهيأ الجو لمعاوية أن يتولى الخلافة وحصل على إجماع الناس سنة ٤١هـ / ٦٦١م[4] فأطلقوا عليه عام الجماعة لأن معاوية نال بيعة جميع الأمصار وأجتمع الناس على خليفة واحد[5].

كما أخذ أيضا على معاوية اتخاذه المنبر للصلاة في إشارة إلى ما أحدثه معاوية " **وقد كان في حجج معاوية في اتخاذ المقصورة بعد ضرب البرك[6] إياه بالسيف، أنه أبصر كلبا على منبره**"[7]. ولم ينقص معاوية الدهاء في هذا الموقف، فالكلب كان مما يدل على خوف معاوية من غيلة أخرى بعد البرك قد لا ينجو منها.

أما يزيد بن معاوية فقد أبرز الجاحظ عيوبه ومثالبه، وكان ذلك واضحا من خلال تفصيله لموقفه من آل البيت وخاصة ما حدث في كربلاء[8] والتي استشهد فيها الحسين بن علي

١- الجاحظ، رسالة النابتة، ص٢٤٣.

٢- ملك عضوض ينال الرعية منه ظلم وعسف. لسان العرب، جـ ٢، ص ٥٥١. حول الملك العضوض انظر: ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، جـ ١، ص ٢٤٤

٣- الجاحظ، رسالة النابتة، ص٢٤٣.

٤- ابن خياط، تاريخ، ص ٢٠٣

٥- ابن خياط، تاريخ، ص١٢٣. السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص١٩٢. ماجد، عبد المنعم. التاريخ السياسي للدولة العربية (عصر الخلفاء الأمويين)، ط ٨، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة: ١٩٩٨م، ص٢٢ (سيشار إليه فيما بعد: ماجد، التاريخ السياسي).

٦- البرك بن عبد الله التميمي(٤٠ هـ / ٦٦٠ م) من أهل البصرة كان أول من عارض في التحكيم لما سمع بذكر الحكمين بين علي ومعاوية فقال: لا حكم إلا لله، وخرج على الفريقين. ثم كان أحد الثلاثة الذين اتفقوا على قتل علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص في يوم واحد. وضمن قتل معاوية، فذهب وكمن له، حتى خرج يريد الصلاة، فضربه، فأصاب أليته ولم يقتله، فقبض عليه معاوية وقتله. انظر: البلاذري، أنساب الأشراف، جـ ٢، ص ٤٩٠. الطبري، تاريخ، جـ ٣، ص ١٥٦.

٧- الجاحظ، الحيوان، جـ ٢، ص٣١٦

٨- تسمية كربلاء تعود في جذورها إلى العهد البابلي، وهي مشتقة من كرب أي مصل. واشتهرت بسبب خروج الحسين بن علي إلى الكوفة، حيث علم يزيد به فوجه إليه جيشا اعترضه في كربلاء بالقرب الكوفة، فنشب قتال أصيب الحسين فيه بجراح شديدة، وسقط عن فرسه، فقتله سنان بن أنس النخعي(وقيل الشمر بن ذي

بعد أن خرج على يزيد رافضاً خلافته إلا أنه تعرض للخيانة من قبل الذين وعدوه بالنصر في الكوفة[1]، كما حدثت في خلافته مصائب أخرى، فقد أشار له الجاحظ بقوله: **"ثم الذي كان من يزيد ابنه ومن عماله وأهل نصرته، ثم غزو مكة، ورمي الكعبة، واستباحة المدينة، وقتل الحسين عليه السلام في أكثر أهل بيته مصابيح الظلام، وأوتاد الإسلام؛ بعد الذي أعطى من نفسه من تفريق أتباعه، والرجوع إلى داره وحرمه، أو الذهاب في الأرض حتى لا يحس به، أو المقام حيث أمر به، فأبوا إلا قتله والنزول على حكمهم. وسواء قتل نفسه بيده، أم أسلمها إلى عدوه وخير فيها من لا يبرد غليله إلا بشرب دمه. فاحسبوا قتله ليس بكفر، وإباحة المدينة وهتك الحرمة ليس بحجة، كيف تقولون في رمي الكعبة، وهدم البيت الحرام، وقبلة المسلمين؟ فإن قلتم: ليس ذلك أرادوا، بل إنما أرادوا المتحرز به والمتحصن بحيطانه. أفما كان من حق البيت وحريمه أن يحصروه فيه إلى أن يعطى بيده، وأي شيء بقي من رجل قد أخذت عليه الأرض إلا موضع قدمه"**[2].

وفي تناوله لموقعة كربلاء وأسبابها يخلص الجاحظ إلى أن يزيد يتحمل دم الحسين[3]، يتضح ذلك من خلال رواية عبيد الله بن زياد بن أبيه[4] بعد حادثة مقتل الحسين بن علي **"وكيف تقولون في قول عبيد الله بن زياد لإخوته وخاصته: دعوني أقتله فإنه بقية هذا النسل، فأحسم به هذا القرن، وأُميت به هذا الداء، وأقطع به هذه المادة "**[5]. عبيد الله بن زياد ما كان ليرسل جيشاً إلا وهو على يقين بما في نفس الخليفة يزيد. يضيف الجاحظ أن عبيد الله بن زياد قتل الحسين في يوم عاشوراء، وقتله الله يوم عاشوراء في السنة الأخرى **"وذلك أنّ عبيد الله بن زياد قتل الحسين في يوم عاشوراء، وقتله الله يوم عاشوراء في السّنة الأخرى"**[6].

الجوشن) وكان مقتله يوم الجمعة عاشر المحرم. ابن خياط، تاريخ، ص ٢٣٤. الحموي، معجم البلدان، جـ ٤، ص ١٣٦. المقريزي، المواعظ والاعتبار، جـ ٢، ص ٤٣

١- الطبري، تاريخ، جـ ٣، ص ٢٩٨. المقريزي، المواعظ والاعتبار، جـ ٢، ص ٤٣

٢- الجاحظ، رسالة النابتة، ص٢٣٩.

٣ - عندما خرج الحسين إلى الكوفة لقيه الفرزدق الشاعر، فسأله عن أمر الناس وراءه، فقال له الفرزدق: إن قلوب الناس معك وسيوفهم مع بني أمية، والقضاء من السماء والله يفعل ما يشاء. البلاذري، أنساب الأشراف، جـ ٣، ص ١٦٤.

أقبل الحسين من مكة يريد العراق، وكان يزيد قد ولى عبيد الله بن زياد العراق، وكتب إليه: قد بلغني أن أهل الكوفة قد كتبوا إلى الحسين في القدوم عليهم، وأنه قد خرج من مكة متوجها نحوهم، وقد بلي به بلدك من بين البلدان، وأيامك من بين الأيام، فإن قتلته، وإلا رجعت إلى نسبك وإلى أبيك عبيد، فاحذر أن يفوتك. اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ص ٢٠٦. الطبري، تاريخ الطبري، جـ ٣، ص ٢٩٨.

٤- عبيد الله بن زياد بن أبيه والي العراق زمن يزيد بن معاوية .ولي البصرة سنة ٥٥ هـ وعمره ٢٢ سنة، كما ولي خراسان. اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ص٣١٠، ٣١١، ٣١٤. ابن خياط، تاريخ، ص ٢٢٣، ٢٢٥، ٢٥٨.

٥- الجاحظ، رسالة النابتة، ص٢٤٧.

٦- الجاحظ، رسالة الأوطان والبلدان، ص ١٠٩

وقد أشار الجاحظ إلى قتلى آل البيت، فقد قتل عبيد الله بن زياد يوم الطف[1] تسعة من صلب علي وسبعة من صلب عقيل، وقد خلّد الشعراء الشيعة[2] ذلك في شعرهم:

عين جودي بعبرة وعويل ... واندبي إن ندبت آل الرسول

تسعة كلهم لصلب علي ... قد أصيبوا وسبعة لعقيل[3]

وأشار الجاحظ إلى افتراء الأمويين بقولهم أن عقيلاً[4] قد أعان معاوية على علي بن أبي طالب - رضي الله عنه- " **ثم إن بني أمية تزعم أن عقيلا أعان معاوية على علي**[5]**، فإن كانوا كاذبين فما أولاهم بالكذب، وإن كانوا صادقين فما جازوا عقيلا بما صنع. وضرب عنق مسلم ابن عقيل صبرا وغدرا بعد الأمان، وقتلوا معه هاني بن عروة**[6] **لأنه آواه**[7] **ونصره**"[8]. ولذلك قال الشاعر:

فإن كنت لا تدرين ما الموت فانظري ... إلى هانئ في السوق وابن عقيل

١- الطف ما أشرف من أرض العرب على ريف العراق، وهو موضع بين البصرة وواسط، والمقصود به المكان الذي قتل فيه الحسين بن علي. الحموي، معجم البلدان، جـ ٤، ص ٣٦. لسان العرب، جـ١، ص ٢٨٣.

٢ - البلاذري، أنساب الأشراف، جـ ٢، ص ٧٠. المسعودي، مروج الذهب، جـ ١، ص ٣٧٥

٣- الجاحظ، رسالة فضل هاشم، ص ٤٥٠

٤ - عقيل بن أبي طالب الهاشمي. شهد بدرا مع قومه مكرها، فأسر يومئذ، سار إلى معاوية فأعطاه مئة ألف وقال: اصعد على المنبر فاذكر ما أولاك علي وما أوليتك، فصعد وقال: يا أيها الناس إني أردت عليا على دينه، فاختار دينه علي، وأردت معاوية على دينه، فاختارني على دينه. توفي في خلافة معاوية. انظر: البلاذري، أنساب الأشراف، جـ ٢، ص ٦٩-٧٦. الذهبي، سير أعلام النبلاء، جـ ٣، ص ٩٩-١٠٠.

٥ - قال معاوية لعقيل وهو معه بصفين: أنت معنا يا أبا يزيد، قال: نعم وقد كنت أيضا معكم يوم بدر. البلاذري، أنساب الأشراف، جـ ٢، ص ٧١، ص ٧٣. العش، الدولة الأموية، ص ١٠٧.

أما المسعودي فيرى أن قدوم عقيل على معاوية بسبب أنه زار الشام منتجعا ولم يشر إلى خلاف عقيل مع علي حول مسألة فاقة عقيل وحاجته للمال. المسعودي، مروج الذهب، جـ ١، ص ٣٦٤.

٦- هاني بن عروة المرادي الغطيفي .تابعي جليل من أصحاب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ,حارب معه في الجمل وصفين والنهروان. كان هانئ من وجهاء أنصار علي بن أبي طالب في مدينة الكوفة ومن المناصرين لمسلم بن عقيل وثورته. قبض عليه عبيد الله بن زياد وقتله يوم عرفة سنة ٦٠ هـ/ ٦٧٩م. انظر: البلاذري، أنساب الأشراف، جـ ٢، ص ٧٩. الدينوري، الأخبار الطوال، ص ٢٣٣. الذهبي، تاريخ، جـ ٤، ص ١٧٠.

٧ - تحول مسلم حين قدم عبيد الله بن زياد من الدار التي كان فيها إلى منزل هانيء بن عروة. الطبري، تاريخ الطبري، جـ ٣، ص ٢٧٥.

٨ - الجاحظ، رسالة فضل هاشم، ص ٤٢١.

تري بطلا قد هشم السيف وجهه ... وآخر يهوي من طمار قتيل[1]

ويكرر الجاحظ مساوئ بني أمية، والتي نفر الناس منها، فعدا عن أنهم جعلوا الخلافة ملكا كسرويا فإنه أيضا **"غزو مكة، ورمي الكعبة، واستباحة المدينة، وقتل الحسين عليه السلام في أكثر أهل بيته مصابيح الظلام، وأوتاد الإسلام"**[2].

والجاحظ يربط بين الأحداث حتى يثبت صحة روايته في موقف جيش يزيد من الحسين والظروف التي أحاطت بتلك الحادثة[3]. يشير في الرواية التالية إلى واقعة مقتل الحسين **" قال الحسين بن على بن أبي طالب رحمة الله عليه قبل أن يقتل بليلة: إني رأيت في المنام كأن كلبا أبقع يلغ في دمائنا، فعبرته هذا الأبرص الضبابي يعني شمر بن ذي الجوشن. كان الرئيس في قتل الحسين ابن علي، والملك يزيد بن معاوية، وكان أمير العراق الذي جهز الجيش وعقد اللواء عبيد الله بن زياد، وكان صاحب الجيش وأمير الجماعة عمر بن سعد، وكان قائده الأكبر شمر بن ذي الجوشن، وكان الذي تولى قتله يزيد بن خولي، والذي حفظ ظهر يزيد حتى نزل إليه وحز رأسه سنان بن أنس. وسألت مشيخة بني صبير عن برص"**[4].

ويظهر من رسالة الحجاب، أن الجاحظ أراد من خلالها نقد بني أمية، وعيبه عليهم في اتخاذهم الحجب كما كان الحال زمن دولة فارس واليونان، إذ وصف يزيد بأنه كان يحتجب عن الناس وهذه منقصة في من يحمل لقب الخلافة **" خبرت أن هانئ بن قبيصة**[5] **وفد على يزيد بن معاوية، فاحتجب عنه أياما ثم لقيه وهو راكب للصيد: يا يزيد، إن الخليفة ليس بالمحتجب المتخلي، ولا المتطرف المتنحي، ولا الذي ينزل على الغدران والفلوات، ويخلو للذات والشهوات. وقد وليت أمرنا فأقم بين أظهرنا، وسهل إذننا، واعمل بكتاب الله فينا، فإن كنت قد عجزت عما هنا فاردد بيعتنا نبايع من يعمل فينا ويقيمه لنا ثم عليك بخلواتك وصيدك وكلابك "**[6].

١- أمر عبيد الله بن زياد بهانيء فسحب إلى الكناسة فصلب. الجاحظ، رسالة في الأوطان والبلدان، ص١٠٩. الطبري، تاريخ الطبري، جـ ٣، ص ٢٧٦.

٢- الجاحظ، رسالة في النابتة، ص٢٤٥.

٣- انظر: ابن خياط، تاريخ، ص١٤٦. اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، جـ ٢، ص٢٩١. ماجد، التاريخ السياسي، ص٦٨.

٤- الجاحظ، البرصان والعرجان، ص ١٢٩

٥- هانئ بن قبيصة بن جابر الأسدي الكوفي(ت: ٦٩ هـ / ٦٨٨ م) من رجال الحديث، الفصحاء، الفقهاء. يعد في الطبقة الأولى من فقهاء أهل الكوفة بعد الصحابة. السمعاني، الأنساب، جـ١، ص٣٩. ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي(ت: ٨٥٣هـ / ١٤٤٩م). تهذيب التهذيب، دائرة المعارف النظامية، حيدر آباد: ١٩٠٧م، جـ ٨، ص٣٨٨ (سيشار إليه فيما بعد: ابن حجر، التهذيب).

٦- الجاحظ، رسالة الحجاب، ص ٥٧٤

ومن مظاهر تلك الصورة السلبية التي رسمها الجاحظ ليزيد بن معاوية إبرازه بصورة المنشغل باللهو والملذات في حياته، جاء ذلك من خلال خطبة أبي حمزة الشاري " **ثم ولي يزيد بن معاوية، ويزيد الخمور، ويزيد القرود، ويزيد الفهود، الفاسق في بطنه، المأبون في فرجه، فعليه لعنة الله وملائكته ثم اقتصهم خليفة خليفة** "[1]. كما تتطابق الأوصاف التي أوردها الجاحظ عن يزيد بن عبد الملك بقوله: " **ثم ولي يزيد بن عبد الملك الفاسق في دينه، المأبون في فرجه**"[2] مع ما ذكره المسعودي بقوله: "**كان يزيد بن الوليد أحول، وكان يلقب بيزيد الناقص، ولم يكن ناقصا في جسمه ولا عقله، وإنما نقص بعض الجند من أرزاقهم، فقالوا: يزيد الناقص** "[3]. وعلى الرغم أن هذه الروايات وردت في كتاب البيان والتبيين الذي احتوى على إطراء وثناء للأمويين، إلا أن الروايتين السابقتين نقلهما الجاحظ عن خطبة أبي حمزة الشاري، فكثيرا ما ينقل الجاحظ الرواية دون أن يبدي رأيه فيها، بل يترك القارئ يحكم ويقرر.

كما اتهم الجاحظ الأمويين بتعطيل الحدود بالشفاعة والقرابة " **وتعطيل الحدود بالشفاعة والقرابة من جنس جحْد الأحكام المنصوصة، والشرائع المشهورة، والسنن المنصوبة** "[4]. وجحد الكتاب ورد السنة النبوية، إذ كانت السنة في شهرة الكتاب وظهوره إلا أن أحدهما أعظم، وعقاب الآخرة عليه أشد، فهذه أول كفرة كانت من الأمة " **جحد الكتاب ورد السنة؛ إذْ كانت السنة في شُهرة الكتاب وظهوره، إلا أن أحدهما أعظم، وعقاب الآخرة عليه أشد** "[5].

كما يأخذ الجاحظ على بني أمية قيامهم بكل ما يمكن من أجل تثبيت ملكهم وفي سبيل ذلك قاموا:" **فأحسبْ أن تحويل القبلة كان غلطاً، وهدم البيت كان تأويلا، وأحسب ما رووا من كل وجه أنهم كانوا يزعمون أن خليفة المرء في أهله أرفع عنده من رسوله إليهم، باطلاً ومصنوعاً مولداً**"[6]. وتفسير ما يشير إليه الجاحظ في أمر تحويل القبلة يرجع إلى سنة ٧٢هـ / ٦٩١م التي قام فيها الحجاج

١- الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ٢، ص ٨٤. تشابهت الخطبة مع خطبة أخرى أوردها الجاحظ في رسالة النابتة تناول فيها بني أمية، ص٢٤٦. كما أشار بلا أيضا إلى وجود تشابه بين الخطبتين، انظر: بلاء الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ص ٢٩٨.

٢ ـ الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ٢، ص ٨٤.

٣ ـ المسعودي، مروج الذهب، جـ ١، ص ٤٤٣

٤- الجاحظ، رسالة النابتة، ص٢٤٨.

٥- المصدر نفسه، ص٢٤٨.

٦- الجاحظ، رسالة النابتة، ص٢٤٥.

بحصار عبدالله بن الزبير في مكة، إذ أن الحصار طال حتى آتى موسم الحج، فاستأذن الحجاج من ابن الزبير السماح لهم بالطواف فلم يأذن له لا بالطواف ولا بالوقوف بعرفة[1].

عدد الجاحظ من خلال أعمال بني أمية الجائرة على الإسلام والمسلمين، من ذلك قوله: **"حتى قام عبد الملك بن مروان، وابنه الوليد، وعاملهما الحجاج بن يوسف، ومولاه يزيد بن أبي مُسْلم، فأعادوا على البيت بالهدم، وعلى حرم المدينة بالغزو، فهدموا الكعبة، واستباحوا الحُرْمة، وحولوا قبلة واسط، وأخروا صلاة الجمعة إلى مُغيربان الشمس "**[2] فما أحدثه يزيد بن معاوية قام به عبد الملك بن مروان مرة أخرى[3]. كما يشير الجاحظ إلى ما قام به الحجاج بن يوسف الثقفي بأمر من عبد الملك بن مروان بضرب الكعبة المشرفة بالمنجنيق بعد محاصرة مكة متعمدا لقتل عبدالله بن الزبير بعد رفضه البيعة للخليفة. ونلاحظ أن الجاحظ يركز على موضوع هدم البيت في أكثر من رواية سالفة الذكر حتى يستثير عواطف الناس ويؤلب قلوبهم على بني أمية. أما تأخير الصلاة والجمع بينها فهذا ما أحدثه الحجاج[4].

وكانت صفة الجور، الصفة الغالبة على بني أمية تجاه رعيتهم " **.... فإن نطق مسلمٌ خبط السيف، وأخذته العمد، وشك بالرماح. وإن قال قائلٌ: اتق الله، أخذته العزة بالإثم، ثم لم يرض إلا بنثر دماغه على صدره، وبصلبه حيث تراه عياله"**[5]. الجاحظ بروايته يشير إلى أن القوم لم يكونوا إلا في طريق التمرد على الله والاستخفاف بالدين والتهاون بالمسلمين والابتذال لأهل الحق.

---

١ - البلاذري، أنساب الأشراف، جـ ٧، ص١١٩.

وقد ذهب ابن خياط واليعقوبي إلى: أن عبد الملك بن مروان منع الناس من الحج بقوله أن عبد الملك بن مروان عندما تولى الخلافة أراد أن يلفت أنظار الناس ويبعدهم عن مكة المكرمة حتى لا يجبرهم عبدالله بن الزبير على البيعة له، فأمر ببناء قبة الصخرة، ومرد ذلك أن اليعقوبي حمل في أحيان كثيرة على الدولة الأموية. ونشير إلى نقطتين: أولاهما أن اليعقوبي ذو ميول شيعية لذا يجب أخذ رواياته على حذر، والثانية: لم نجد في مصادر التاريخ الأخرى ما يسند روايته، فقد ورد عند ابن خياط: أقام الحج للناس عبد الله بن الزبير من سنة أربع وستين إلى أن حضر موسم اثنتين وسبعين فحج ابن الزبير بالناس ولم يقفوا الموقف وحج الحجاج بأهل الشام ولم يطوفوا بالبيت، إن المسألة تتمحور حول رغبة أهل الشام في الحج في السنة التي حاصروا فيها ابن الزبير، أما تفسير منعهم من قبل عبد الملك بن مروان بسبب الخوف من إجبارهم على البيعة لابن الزبير فهذا لا يقبله منطق الأحداث التي رافقت عملية حصار ابن الزبير. ثم لا يعقل أن يقوم عبد الملك بمحاولة تحويل قبلة المسلمين وحجهم إلى مكان غير مكة المكرمة. فلم تكن القدس أكبر اهتماماً لديه من مكة والمدينة، فبعد أن ضم الحجاز قام فوراً بأداء فريضة الحج إجلالاً لمكة، وكذلك فإن عبد الملك بن مروان أمر بالبدء في تعمير الكعبة المشرفة. تاريخ ابن خياط، ص٢٦٩. اليعقوبي، تاريخ، ص ٢١٤.

٢- الجاحظ، رسالة النابتة، ص٢٤٦.

٣ - الزويري، الإمامة، ص ٨١.

٤- الدينوري، الأخبار الطوال، ص ٣١٧. ابن خياط، تاريخ، ص ٣٨٢-٣٨٧. الذهبي، سير أعلام النبلاء، جـ٤، ص ٣٠٦

٥- الجاحظ، رسالة النابتة، ص٢٤٧

وفي الوقت نفسه، فقد عمل الجاحظ على إظهار جور بني أمية تجاه بني هاشم، ابتداءً من محاربة علي، إلى سَّم الحسن، وقتل الحسين، وسم أبي هاشم عبد الله بن محمد بن علي بن أبي طالب- رضي الله عنه- ، وضرب الكعبة وتغيير موعد الصلاة. " **فاحسبوا قتله ليس بكفر، وإباحة المدينة وهتك الحُرمة ليس بحجة، كيف تقولون في رمْي الكعبة، وهدم البيت الحرام، وقبْلة المسلمين؟** "[1] كما كررها في رسالة النابتة[2]. " **وبسبب ما ارتكب بنو أمية من مخاز وفجور دالت دولتهم بسرعة وانتزع العباسيون الملك من أيديهم بالبطش والحيلة** "[3]. في إشارة منه أن زوال دولة بني أمية كانت بسبب بطشهم وتجبرهم على الناس.

ليس هذا فحسب، بل إن الجاحظ عمل على التقليل من شأن بني أمية، حتى في الصفات التي عرفت عنهم "**وإن أريد الموازنة بين ملوك بني العباس وملوك بني أمية في العطاء افتضح بنو أمية وناصروهم فضيحة ظاهرة. فإن نساء خلفاء بني العباس أكثر معروفا من رجال بني أمية، ولو ذكرت معروف أم جعفر**[4] **وحدها لآتى ذلك على جميع صنائع بني مروان. وذلك معروف. ولو ذكرت معروف الخيزران**[5] **وسلسبيل**[6] **لملأت الطوامير الكثيرة به، .... وإن شئت أن تذكر مواليهم وكتابهم فاذكر عيسى بن ماهان**[7]**، وابنه عليا**[8]**، وخالد بن برمك**[9] **وابنه يحيى، وابنيه جعفر والفضل، وكاتبهم منصور بن زيد**[10]**،**

١- المصدر نفسه، ص ٢٤٩.

٢- المصدر نفسه، ص ٢٤٩.

٣- الجاحظ، رسالة فضل هاشم، ص ٤١١

٤ - زبيدة بنت جعفر بن أبي جعفر المنصور وهي أم الأمين محمد بن هارون الرشيد سقت أهل مكة الماء بعد أن كانت الرواية عندهم بدينار، أسالت الماء عشرة أميال بحط الجبال حتى غلغلته من الحل إلى الحرم. ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ ٢، ص ٣١٤. الصفدي، الوافي بالوفيات، جـ ٤، ص ٣٧٢.

٥- الخيزران(ت: ١٧٣هـ / ٧٨٩ م) زوجة المهدي العباسي، وأم ابنيه الهادي وهارون الرشيد، وكانت من جواري المهدي، ولما مات وولي ابنها الهادي أخذت المواكب تغدو وتروح إلى بابها. وحاول الهادي منعها من ذلك حتى قال لها: إذا وقف ببابك أمير ضربت عنقه، وسعى في عزل أخيه الرشيد من ولاية العهد، وقيل: إنها علمت عزمه على قتل الرشيد. فأرسلت إليه بعض جواريها، وهو مريض، فجلسن على وجهه حتى مات خنقا. الطبري، تاريخ، جـ ٤، ص٥٥١، ٦٠٤، ٦٠٥. الذهبي، تاريخ الإسلام، جـ ١١، ص٦، ص١١١.

٦ - أم ولد لجعفر بن المنصور، ابن قتيبة، المعارف، ص ٨٦.

٧- أبو جعفر الرازي عيسى بن ماهان ، ولد بالبصرة. ولد في حدود التسعين، في حياة بقايا الصحابة. حدث عن: عطاء بن أبي رباح، وعمرو بن دينار، وقتادة، والربيع بن أنس، وجماعة. زامل أبو جعفر الرازي والمهدي، توفي في حدود سنة ستين ومئة. البلاذري، أنساب الأشراف، جـ٤، ص١٦٩. الذهبي، سير أعلام النبلاء، جـ ٧، ص ٣٤٦-٣٤٨.

٨ - من كبار قواد الدولة، وهو الذي أشار على الأمين بخلع أخيه المأمون من ولاية العهد، فأمره الأمين على أصبهان والجبال، وقدم جيش المأمون عليهم طاهر بن الحسين، فالتقى الجمعان، فكان علي بن عيسى أول قتيل. وذلك في سنة خمس وتسعين ومائة. الدينوري، الأخبار الطوال، ص ٣٩٠-٣٩٦. الذهبي، تاريخ الإسلام، جـ١٣، ص ٣١٢.

٩- خالد بن برمك وزر لأبي العباس السفاح بعد أبي سلمة الخلال. ثم إنه وزر للمنصور سنة وأشهرا، ثم ولاه إمرة بلاد فارس، كان من أفراد الرجال رئاسة، ودهاء، وحزما، وخلفه في ذلك أولاده يحيى وجعفرا والفضل.

ومحمد بن منصور فتى العسكر[٢]، فإنك تجد لكل واحد من هؤلاء ما يحيط بجميع صنائع بني عبد شمس"[٣].
فهذه المقارنة بين خلفاء بني أمية ونساء بني العباس لم يوفق فيها الجاحظ البتة، بل إن النفس السوية لتنأى عن مثل هذه المقارنات لرجال خدموا الإسلام ردحا من الزمن. ومعلومٌ ما لخلفاء بني أمية من الفتوحات، وما خصهم الله عز وجل ويسره على أيديهم من نشر الإسلام وفيه انتشر العلم والفقه، ودُون الحديث، ودُون التفسير، وعم الرخاءُ في العالم الإسلامي. وأن الرسول صلى الله عليه وسلم كان كثيرٌ مِنْ عُمالِهِ في البلدان من بني أمية، وكذا عمال أبي بكر وعمر وعثمان - رضي الله عنهم- وماتوا وهم عنهم راضون.

ولما تولى يزيد بن عبد الملك الخلافة كان راغبا في أن يسير بالناس سيرة عمر بن عبد العزيز لكنه فشل بسبب حاشية السوء[٤] حيث انقلب حاله وأصبح مولعاً بالجواري والغناء **"واتخذ يزيد بن عبد الملك حبابة وسلامة[٥]، وأدخل الرجال عليهن للسماع "[٦].**

كما أشار الجاحظ إلى يزيد بن الوليد أنه كان مهملاً للخلافة طائشاً لا يُحسن تصريف الأمور مات مقتولاً[٧] من قبل ابن عمه يزيد الثاني بن الوليد " **ولما قتل يزيد بن الوليد ابن عمه الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان "[٨].**

كما نجد أن الجاحظ يحمل حتى على الكتاب المخضرمين الذين كتبوا لبني أمية وعاشوا في دولة بني العباس ويرميهم بالشؤم: **"فهذا عبد الحميد الكاتب[١] الذي كتب لبني امية**

مات في سنة خمس وستين ومئة. انظر: اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ص ٣٧٦. الذهبي، سير أعلام النبلاء، جـ٧، ص ٢٢٨-٢٢٩.

١- لم نعثر على ترجمة له، إذ كثيرا ما يذكر الجاحظ أعلاما لم ترد في مصادر التاريخ الأخرى.

٢- كان من قواد هارون الرشيد كما أن والده كان كاتباً، أطلق عليه هارون الرشيد لقب فتى العسكر لسخائه وسريته. انظر: الطبري، تاريخ، جـ ٤، ص٦٦٥.

٣- الجاحظ، رسالة فضل هاشم، ص ٤٣٢

٤- الطبري، تاريخ، جـ ٤، ص ٧٢. ابن الأثير، الكامل، جـ ٢، ص٣٧٢.

٥- سلامة مولدة من مولدات المدينة وبها نشأت. وإنما سميت سلامة القس لأن رجلاً يعرف بعبد الرحمن بن أبي عمار الجشمي من قراء أهل مكة، وكان يلقب بالقس لعبادته، شغف بها وشهر، فغلب عليها لقبه. واشتراها يزيد بن عبد الملك في خلافة سليمان، وعاشت بعده، وكانت إحدى من اتهم به الوليد من جواري أبيه. الطبري، تاريخ، جـ ٤، ص١١٠. المسعودي، مروج الذهب، جـ ١، ص٤٣٤.

٦- الجاحظ، رسالة القيان، جـ ٢، ص١٥٩

٧- الطبري، تاريخ، جـ ٤، ص ٢٣٢. ابن الأثير، الكامل، جـ ٢، ص ٤٣٧- ٤٤٢.

٨- الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ٢، ص ٩٦

فانتقضت خراسان عليهم وزال ملكهم..."[2]. " ثم كتب لهم عبدُ الحميد وكان معلماً، وبتحامله على نصر بن سيار انتقضت خراسان، وزال ملك بنى مرْوان"[3].

أورد الجاحظ بعض الخطب التي تتناول بني أمية وتنتقص من قدرهم، هذا على الرغم أن الجاحظ برر موقفه من أنها خطب متداولة لكن عملية انتقائها تدل على فحوى ما يرمي إليه الجاحظ، من ذلك أورد خطبة أبي حمزة الشاري[4] " وأما بنو أمية ففرقة الضلالة، بطشهم بطش جبرية، يأخذون بالظنة، ويقضون بالهوى، ويقتلون على الغضب، ويحكمون بالشفاعة، ويأخذون الفريضة من غير موضعها، ويضعونها في غير أهلها، وقد بين الله أهلها فجعلهم ثمانية أصناف، فقال: إنما الصدقاتُ لِلْفقراءِ والْمساكِينِ والْعامِلِين عليْها والْمؤلفةِ قُلوبُهُمْ وفِي الرقابِ والْغارِمِين وفِي سبِيلِ اللهِ وابن السبِيلِ. فاقبل صنف تاسع ليس منها فاخذها كلها. تلكم الفرقة الحاكمة بغير ما أنزل الله"[5]. انطلق هدف الجاحظ في إيراد خطبة أبي حمزة من منطلق سياسي هدفه تنقيص خلافة بني أمية وإظهار عيوبها، ومن منطلق بياني تعريفا بما احتوته الخطبة من البيان.

أما الصورة الأخرى التي رسمها الجاحظ لخلفاء بني أمية، فقد كانت صورة إيجابية اتسمت بالمدح والثناء، يعرض من خلالها دور بني أمية في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وكذلك فترة الخلفاء الراشدين، ثم دورهم في الدفاع عن الإسلام ونشره في عهد دولتهم. ينطلق الجاحظ من أبي سفيان صخر بن حرب[6] الذي يعده من أهم شخصيات بني أمية، ومن سادات

١- عبد الحميد الكاتب: يضرب به المثل في الكتابة والبلاغة. سكن الرقة وكتب الإنشاء لمروان بن محمد أخر خلفاء بني أمية. كان في الأول مؤدباً فتنقل في البلدان وعنه أخذ المترسلون ومنه يستمدون حتى قيل: فتحت الرسائل بعبد الحميد وختمت بابن العميد ومجموع رسائله نحو مائة. قتل مع مروان ببوصير في سنة اثنتين وثلاثين ومائة. التوحيدي، البصائر والذخائر، جـ ١، ص ٢٨، ١٩٠، ١٩٨. الذهبي، تاريخ الإسلام، جـ ٨، ص٤٧٠.

٢- الجاحظ، رسالة ذم أخلاق الكتاب، جـ ٢، ص ٣١٧

٣ - المصدر نفسه، ص ٢٠٢

٤ - المختار بن عوف الأزدي من أهل البصرة يوافي الموسم كلّ سنة يدعو الناس إلى خلاف مروان بن محمّد وآل مرون، حتّى وافى عبد الله بن يحيى. فقال لعبد الله بن يحيى: يا رجل، إني أسمع كلاما حسنا وأراك تدعو إلى حقّ، فانطلق معي فإني رجل مطاع في قومي. فخرج حتى ورد حضرموت فبايعه أبو حمزة على الخلافة ودعا إلى خلاف مروان وآل مروان. الطبري، تاريخ الطبري، جـ٤، ص ٣٠٢. ابن مسكويه، تجارب الأمم، جـ ٣، ص ٢٥٦. للمزيد انظر: البلاذري، أنساب الأشراف، جـ ٩، ص ٢٨٩. المسعودي، مروج الذهب، جـ١، ص ٤٥٢. جـ ٢، ص٢١١.

٥- الجاحظ، البيان والتبين، جـ ٢، ص ٨٥

٦ - أبو سفيان صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف(٥٧ ق هـ - ٣١ هـ / ٥٦٧ - ٦٥٢ م)، من سادات قريش في الجاهلية. والد معاوية رأس الدولة الأموية، قاد قريشا وكنانة يوم أحد ويوم الخندق لقتال رسول الله صلى الله عليه وسلم وأسلم يوم فتح مكة(سنة ٨هـ/ ٦٢٩م) وأبلى بعد إسلامه البلاء الحسن. وشهد حنينا والطائف، ففقئت عينه يوم الطائف ثم فقئت الأخرى يوم اليرموك، فعمي، قال المسيب: فقدت الأصوات يوم اليرموك إلا صوت رجل يقول: يا نصر الله اقترب. قال: فنظرت، فإذا هو أبو سفيان، تحت راية ابنه يزيد. ولما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أبو سفيان عامله على نجران. ثم أتى الشام، وتوفي بالمدينة،

قريش في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، وكان له مواقف جليلة مع الرسول صلى الله عليه وسلم، لعل منها ما أورده لنا الجاحظ "**وقد قال ابو سفيان بن حرب بن امية، عندما بلغه من تزوج النبي صلى الله عليه وسلم بام حبيبة**[1]**، وقيل له: مثلك تنكح نساؤه بغير إذنه؟! فقال: ذلك الفحل لا يقرع انفه**"[2][3].

فتمثل ثناء الجاحظ على بني أمية في صور متعددة من ذلك استشهاده بهم في كتاباته ورواياته وتحليلاته ونقده، مثل استشهاده بمعاوية بن أبي سفيان في رسالة كتمان السر وحفظ اللسان إذ يقول: " ...**قال معاوية: أتدري من النبيل؟ هو الذي إذا رأيته هبته، وإذا غاب عنك اغتبته. وهي لعمري سبيل العظماء عند العوام، والملوك عند الرعية، والسادة عند العبيد**"[4]. فقد تميز معاوية بعقلية فذة وخبرات واسعة حيث أن تقلبه في المناصب العسكرية والولاية المدنية أكسبته خبرة في سياسة البلاد. وأهم ما تفرد به قدرته على ضبط النفس عند الغضب.

كما أورد الجاحظ شعرا لابن الرقيات[5] في الأمويين:

وقيل بالشام. ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ ٦، ص ٣٥٦. الذهبي، سير أعلام النبلاء، جـ ٢، ص ١٠٥. الصفدي، الوافي بالوفيات، جـ ٥، ص ٢٤٠.

١ ـ رملة بنت أبي سفيان أم المؤمنين. تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي بالحبشة زوجه إياها النجاشي ومهرها أربعة آلاف درهم من عنده وبعث بها مع شرحبيل بن حسنة وجهازها كله من عند النجاشي. توفيت بالمدينة سنة أربع وأربعين وقيل بدمشق وقد أتت تزور أخاها معاوية.البلاذري، أنساب الأشراف، جـ ١، ص١٩٩، ص٤٣٨. الذهبي، سير أعلام النبلاء، جـ ٢، ص ٢١٨. الصفدي، الوافي بالوفيات، جـ ٤، ص ٤٦٣.

٢ ـ عندما خطب النبي، صلى الله عليه وسلم السيدة خديجة، استأذنت أباها في أن تتزوجه، فأذن لها في ذلك وقال: هو الفحل لا يقرع أنفه يقصد هذا الكفء الذي لا يرد نكاحه ولا يرغب عنه. لسان العرب، جـ ٤، ص١٥٩. جـ ٨، ص ١٤.

٣ـ أشار الواقدي لما قدم أبو سفيان المدينة، عندما عزم النبي صلى الله عليه وسلم فتح مكة، كلمه في أن يزيد في الهدنة. فلم يقبل عليه الصلاة والسلام. فقام أبو سفيان فدخل على ابنته أم حبيبة، فلما ذهب ليجلس على فراش النبي صلى الله عليه وسلم طوته دونه. فقال: يا بنية، أرغبت بهذا الفراش عني، أم بي عنه ؟ قالت: بل هو فراش رسول الله. الواقدي، محمد بن عمر بن واقد السهمي(ت: ٢٠٧ هـ / ٨٢٣ م). المغازي، ط ٣، مؤسسة الأعلمي، بيروت: ١٩٦٦م، جـ ٢، ص ٧٩٢ (سيشار إليه فيما بعد: الواقدي: المغازي). ابن سعد، محمد بن سعد بن منيع البصري(ت: ٢٣٠هـ / ٨٤٤م). الطبقات الكبرى، دار الكتب العلمية، بيروت: ١٩٩٧م، جـ ٨، ص١٠٠ (سيشار إليه فيما بعد: ابن سعد، الطبقات). الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ٣، ص ٣٠.

٤ ـ الجاحظ، رسالة كتمان السر وحفظ اللسان، جـ ١، ص ١٠٥

٥ـ هو عبيد الله بن قيس (ت: ٨٥هـ / ٧٠٤م)، من بني عامر بن لؤي، وإنما سمي الرقيات لأنه له عدة جدات يسمين رقية . ولما قتل مصعبٌ وصار الأمر إلى عبد الملك بن مروان أتى عبيد الله بن قيس عبد الله بن جعفر

"ما نقموا من بني أمية إلا ... أنهم يحلمون إن غضبوا

وأنهم معدن الملوك ولا ... تصلح إلا عليهم العرب"[1]

أورد الجاحظ البيتين في كتاب البيان الذي رفع فيه من شأن بني أمية وبلاغتهم، وأبدى إعجابه بدولتهم كما سنأتي عليه تاليا.

أشار الجاحظ أن دولة بني أمية دولة عربية بينما وصف دولة بني العباس بأعجمية خراسانية "**وقد يجب أن نذكر بعض ما انتهى إلينا من كلام خلفائنا من ولد العباس، ولو أن دولتهم أعجمية خراسانية، ودولة بني مروان عربية أعرابية وفي أجناد شامية**"[2]، وقد فسر الكثير من المؤرخين كلامه على أن دولة بني العباس قامت على سواعد الفرس وهذا راجع إلى الخطأ في فهم الرواية[3]، ، وسنفسر ذلك من خلال رواية الجاحظ نفسه بقوله: " **وقد نرى الناس أبناء الأعراب والأعرابيات الذين وقعوا إلى خراسان فلا شك أنهم علوج[4] القرى**"[5] حيث تؤكد هذه الإشارة سكن العرب في القرى وامتزاجهم بالسكان المحليين، والجاحظ ينبه أيضا أن اصطلاح أهل خراسان ليس اصطلاحاً عرقياً بل حضارياً " **ولو أن أهل خراسان حفظوا على أنفسهم وقائعهم في أهل الشام، وتدبير ملوكهم، وسياسة كبرائهم، وما جرى في ذلك من فرائد الكلام وشريف المعاني، كان فيما قال المنصور وما فعل في أيامه، وأسس لمن بعده ما يفي بجماعة ملوك بني مروان** "[6] فدولة بني أمية قامت على سواعد عربية وينطبق نفس الشيء على دولة بني العباس التي كانت منطلق الثورة فيها من عرب خراسان[7].

يستشفع به إليه. فقال عبد الملك: قد عفونا عنه ولا يأخذ مع المسلمين عطاءً. انظر: ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم الدينوري(ت: ٢٧٦هـ/ ٨٨٩م). الشعر والشعراء، تحقيق عمر الطباع، دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت: ١٩٩٧م، ص٥٣٠ (سيشار إليه فيما بعد: ابن قتيبة، الشعر والشعراء). الصفدي، الوافي بالوفيات، جـ ٦، ص٣١٥.

١- الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ٣، ص ٢٣٥

٢- المصدر نفسه، ص ٢٣٥

٣ - ذكر الدكتور علي محمد في كتابة تيار الشعوبية أن المقصود من الرواية أن الدولة العباسية قد تشكلت بفعل الموالي وأخذت صبغة أعجمية، وهذا تحليل خاطئ بسبب أن عبارة الجاحظ ترجع إلى موضوع أصل سكان خراسان وليس الأمور الإدارية كما ظن الكاتب. والخطأ الذي وقع فيه الكاتب وقع فيه غيره بسبب الخطأ في تحليل وفهم روايات الجاحظ. خليفة، تيار الشعوبية، ص٥٨.

٤ - العلج: الشديد والغليظ من الرجال. لسان العرب، جـ ٢، ص ٣٢٦.

٥- الجاحظ، رسالة فخر السودان على البيضان، ص ٥٥٥

٦- الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ٣، ص ٢٣٧.

٧- أشار بلا أن هذه العبارة تدل على التحول العميق في طريقة كتابة التاريخ، فقد كانت الأخبار في القرن الأول الهجري والتي دونت فيما بعد واعتمد عليها المؤرخون تعنى بالأقوال أكثر منها بالأفعال التي صدرت

نظرة الجاحظ نحو بني أمية في هذا المحور تتمثل بالمدح والثناء نظرا للموقف السياسي العام السائد نحو بني أمية بعد تولي المتوكل الخلافة، وهو موقف سلمي يخلو من النبرات العدائية نحو بني أمية وإن كان جاء متأخراً. فلا ينكر الصفات الحميدة التي تحلو بها، من ذلك وصفهم بمكارم الأخلاق " **كانت بنو أمية لا تقبل الراوية إلا أن يكون راوية للمراثي. قيل: ولم ذاك؟ قيل: لأنها تدل على مكارم الأخلاق** "[١].

أورد الجاحظ خصال معاوية منذ عهد النبي صلى الله عليه وسلم من ذلك صفات إعانة المحتاجين والفقراء، يقول الجاحظ: " **يكتب إلى أطرافه وعماله وإلى زياد في العراق بإطعام السابلة والفقراء وذوي الحاجة، وله في كل يوم أربعون مائدة يتقاسمها وجوه جند الشام**"[٢]. والملاحظ على الجاحظ في حديثه عن الأمويين في كتاب البيان أنه يبتعد في أحكامه عن الهوى والعاطفة[٣]. ودليل ذلك أنه لا يخفي مواقفه المعجبة بسياساتهم ومهاراتهم في الإدارة وكذلك ببلاغتهم في الخطابة.

كما أشاد الجاحظ بصفة الحلم في معاوية " **قال معاوية: إذا لم يكن الهاشمي جوادا لم يشبه قومه، وإذا لم يكن المخزومي تياها لم يشبه قومه، وإذا لم يكن الأموي حليما لم يشبه قومه**"[٤]. ولم يكن كل أموي حليماً فلم توجد هذه الصفة عند يزيد بن معاوية ولكنها وجدت عند معاوية بن أبي سفيان الذي عرف عنه الحلم[٥]. لقد كان حلم معاوية ورحابة صدره مضرب المثل، وأخباره في ذلك كثيرة[٦].

يشير الجاحظ إلى ما اتصف به معاوية من البلاغة بقوله: "**حتى إن معاوية مع تخلفه عن مراتب أهل السابقة، أملى كتابا إلى رجل فقال فيه: لهو أهون علي من ذرة، أو كلب من كلاب الحرة، ثم قال:**

عن أصحابها. الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ص١٧٢. انظر أيضا: فوزي، الجاحظ مؤرخاً، ص٤١٠ وما يليها.

١- الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ٢، ص ٢١٨

٢- التاج في أخلاق الملوك (منسوب للجاحظ). تحقيق أحمد زكي باشا. دار الفكر: بيروت، ١٩٥٥م. ص ١٥.(سيشار إليه فيما بعد: التاج منسوب للجاحظ).

٣ - EL-'ATTAR, THOUGHT OF AL-JÄHIZ,p٢٠١

٤- الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ٣، ص٢٨٤

٥ - قال معاوية: إن الحلم عز، والجهل ذل، فمن حلم ظفر، ومن جهل خسر. مجهول، أخبار العباس وولده، ص٦١.

٦- انظر: ابن أبي الدنيا، عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان(ت: ٢٨١هـ / ٨٩٤م). حلم معاوية، تحقيق إبراهيم صالح، دار البشائر، بيروت: ٢٠٠٣م، جـ ١، ص ١٩ وما يليها (سيشار إليه فيما بعد: ابن أبي الدنيا، حلم معاوية).

امح: من كلاب الحرة، واكتب: من الكلاب. كأنه كره اتصال الكلام والمزاوجة وما أشبه السجع، وأرى أنه ليس في موضعه "[1].

والمفارقة أن الجاحظ يصف يزيد بن معاوية بالخطابة، وعده من خطباء بني أمية "ومن خطبائنا يزيد بن معاوية، كان أعرابي اللسان بدوي اللهجة. قال معاوية: وخطب عنده خطيب فأجاد- لأرمينه بالخطيب الأشدق. يريد يزيد ابن معاوية "[2]. إذ وردت الإشارة له في باب مفاخر بني عبد شمس بالخطابة.

يشيد الجاحظ بجهود عبد الملك بن مروان في إعادة الأمن والاستقرار للدولة، وإخضاعه للخوارج، كما استطاع من خلال قائده الحجاج أن يخمد ثورات العراق ويقضي على ثورة عبد الله بن الزبير بعد حصار مكة الذي دام سبعة أشهر[3] " وقُتل عبد الله بن الزبير في محاربة الحجاج" [4]، كما قضى على أخيه مصعب من قبل " ودخل عبيد الله على عبد الملك بن مروان بعد أن أتاه برأس مصعب ابن الزبير ومعه ناس من وجوه بكر بن وائل "[5] .

لم يخف الجاحظ إعجابه بسياسة عبد الملك بن مروان الذي كان حريصاً على مقابلة رعيته، ونستشف من خلال الأخبار والأقوال والأشعار التي ساقها الجاحظ كره العرب للحجابة التي توضع بين الحاكم والشعب ورغبتهم في تمتين الصلة بينهما حتى أنه أوصى أخاه عبدالعزيز وكان والياً على مصر قال له :" إن الناس قد أكثروا عليك، ولعلك لا تحفظ، فاحفظ عني ثلاثا. قال: قل يا أمير المؤمنين. قال: انظر من تجعل حاجبك، ولا تجعله إلا عاقلا فهما مفهما، صدوقا لا يورد عليك كذبا، يحسن الأداء إليك والأداء عنك. ومره ألا يقف ببابك أحد من الأحرار إلا أخبرك، حتى تكون أنت الإذان له أو المانع؛ فإنه إن لم يفعل كان هو الأمير وأنت الحاجب. وإذا خرجت إلى أصحابك فسلم عليهم يأنسوا بك. وإذا هممت بعقوبة فتان فيها؛ فإنك على استدراكها قبل فوتها أقدر منك على انتزاعها بعد فوتها"[6] .

١- الجاحظ، رسالة مدح التجار وذم عمل السلطان، ص ٢٤٠

٢- الجاحظ، رسالة فضل هاشم، ص ٤٣٩

٣- أرسل عبد الملك بن مروان الحجاج لحرب ابن الزبير في ذي القعدة سنة ٧٢ هـ/ ٦٩١م. وكتب الحجاج إلى عبد الملك بحصار ابن الزبير وظفره بأبي قبيس فلما ورد كتابه كبر عبد الملك، فكبر من معه في داره، واتصل التكبير بمن في جامع دمشق فكبروا، واتصل ذلك بأهل الأسواق فكبروا، ثم سألوا عن الخبر فقيل لهم: ان الحجاج حاصر ابن الزبير بمكة وظفر بجبل أبي قبيس. ابن خياط، تاريخ، ص ٣٢٩، الطبري، تاريخ، جـ٣، ص٥٤١، ٥٨٣.

٤- الجاحظ، رسالة فضل هاشم، ص ٤٢٩. ابن الأثير، الكامل، جـ ٢، ص٢٧١

٥- الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ١، ص ١٤٣

٦- الجاحظ، رسالة الحجاب، ص٥٧١

كما أورد الجاحظ الصراع الذي دار بين عبد الملك بن مروان من جهة وعبد الله بن الزبير وأخيه مصعب[1] من جهة أخرى وذلك عندما تناول موقف الروم من الصراع الذي كان دائراً بين ابن الزبير وعبد الملك " **لما تشاغل عبد الملك بن مروان بمحاربة مصعب بن الزبير، اجتمع وجوه الروم إلى ملكهم فقالوا له: قد أمكنتك الفرصة من العرب، بتشاغل بعضهم مع بعض، لوقوع بأسهم بينهم، فالرأي لك أن تغزوهم إلى بلادهم، فإنك إن فعلت ذلك بهم نلت حاجتك، فلا تدعهم حتى تنقضي الحرب التي بينهم فيجتمعوا عليك! فنهاهم عن ذلك وخطأ رأيهم، فأبوا عليه إلا أن يغزوا العرب في بلادهم. فلما رأى ذلك منهم أمر بكلبين فحرش بينهما، فاقتتلا قتالا شديدا، ثم دعا بثعلب فخلاه، فلما رأى الكلبان الثعلب، تركا ما كانا فيه، وأقبلا عليه حتى قتلاه، فقال ملك الروم: كيف ترون!؟ هكذا العرب، تقتتل بينها، فإذا رأونا تركوا ذلك واجتمعوا علينا فعرفوا صدقه، ورجعوا عن رأيهم**"[2].

ونالت شخصية الحجاج حيزاً من اهتمامات الجاحظ، فقد أشار إلى شخصيته وقدراته السياسية والعسكرية التي كانت سبباً في بروزه وفي تقريب عبد الملك بن مروان له، إذ أن قضاءه على ثورة عبد الله بن الزبير في الحجاز كانت من العوامل التي ساهمت في أن يوليه عبد الملك بن مروان ولاية العراق، ويشير الجاحظ إلى تلك الحادثة بقوله: " **خرج الحجاج يريد العراق واليا عليها، في اثني عشر راكبا على النجائب، حتى دخل الكوفة فجأة حين انتشر النهار، وقد كان بشر بن مروان بعث المهلب إلى الحرورية[3]، فبدأ الحجاج بالمسجد فدخله، ثم صعد المنبر وهو متلثم بعمامة خز حمراء، فقال: علي بالناس! فحسبوه وأصحابه خوارج، فهموا به، حتى إذا اجتمع الناس في المسجد قام فكشف عن وجهه، ثم قال:**

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا ... متى أضع العمامة تعرفوني

أما والله إني لأحتمل الشر بحمله، واحذوه بفعله، وأجزيه بنعله، ... إني والله يا أهل العراق، والشقاق والنفاق، ومساوئ الأخلاق، ما أغمز تغماز التين[4]، ولا يقعقع لي بالشنان[5]، ولقد فررت عن ذكاء

١- كان أميرًا على العراق في خلافة أخيه عبد الله بن الزبير. وقتل أمام جيش الأمويين بقيادة عبد الملك بن مروان ٧١هـ / ٦٩١م. وأمر الحجاج بقطع رأسه وبعث به إلى أخيه عبد الله بن الزبير في مكة. اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ص ٣٢٧، ٣٢٨.

٢- الجاحظ، الحيوان، جـ ٢، ص ٣٢٣

٣ - لما قدم علي بن أبي طالب إلى الكوفة من صفين خاصمته الحرورية، فلما رأى ذلك علي أرسل إليهم إنا نوادعكم إلى مدة نتدارس فيها كتاب الله لعلنا نصطلح. البلاذري، أنساب الأشراف، جـ ٢، ص ٣٥٣.

٤ - استضعفه وعابه وصغر شأنه وجهلة في العقل. لسان العرب، جـ ٥، ص ٣٨٩.

٥ - البغضة. ويقال: شنئت الرجل أي أبغضته. لسان العرب، جـ ١، ص ١٠١ – ١٠٢.

وفتشت عن تجربة، وجريت من الغاية. إن أمير المؤمنين كب كنانته ثم عجم عيدانها، فوجدني أمرها عودا، وأصلبها عمودا، فوجهني إليكم، فإنكم طالما أوضعتم في الفتن.."[1]

كان الوليد بن عبد الملك يعتز بالحجاج بن يوسف لأنه وطد له العراق ولوالده عبد الملك، كما كان الحجاج صاحب فكرة البيعة للوليد حيث أوفد في ذلك وفداً[2]، ويتوافق هذا مع ما ذكره الجاحظ " **خطب الوليد بن عبد الملك فقال: إن أمير المؤمنين كان يقول: إن الحجاج جلدة ما بين عيني، ألا وإنه جلدة وجهي كله** "[3] وهذا ليس بغريب فقد وطد الحجاج لبني مروان العراق الذي كان لا يبقى فيه والٍ بسبب الثورات والاضطرابات.

امتاز الحجاج بالبلاغة والفصاحة، وكان هذا سر إعجاب الجاحظ بخطبته التي أورد بعضاً منها في كتابه البيان والتبيين، والتي من خلالها يلاحظ موقف الحجاج من أهل العراق"**خرج الحجاج يوما من القصر بالكوفة، فسمع تكبيرا في السوق، فراعه ذلك، فصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، وصل على نبيه ثم قال: يا أهل العراق، يا أهل الشقاق والنفاق، ومساوىء الأخلاق، وبني اللكيعة[4]، وعبيد العصا[5]، وأولاد الإماء[6]، والفقع بالقرقر[7]. إني سمعت تكبيرا لا يراد به الله، وإنما يراد به الشيطان**"[8] استعمل الحجاج في هذه الخطبة كل تقريع وشتم بعد أن رأى غمز القوم ولمزهم على رسالة عبد الملك بن مروان.

١- الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ٢، ص ٢١٠. وردت الخطبة بنصها عند كل من: البلاذري، أنساب الأشراف، جـ ٧، ص٢٧٤. ابن عبد ربه، العقد الفريد، جـ ٥، ص ٢٧٩. ابن مسكويه، تجارب الأمم، جـ ٢، ص٢٥٦. النويري، نهاية الأرب، جـ ٦، ص٣٤.

٢- الطبري، تاريخ، جـ ٣، ص ٦٦٤. ابن الأثير، الكامل، جـ ٤، ص ٥١٣.

٣- الجاحظ، البيان والتبيين جـ ١، ص٢٤٢.

٤- اللكيع قليل الخير وخبيث الفعال شحيحا. لسان العرب، جـ ٨، ص ٣٢٤،

٥- وهم عبيد العصا، أي: يُضربون بها. يقصد أنهم لا ينقادون إلا بالإذلال. كان حجر بن الحارث أبو امرئ القيس ملك بني أسد وكان له عليهم إتاوة كل سنة لما يحتاج إليه فبقي كذلك دهرا ثم بعث إليهم من يجبي ذلك منهم وحجر يومئذ بتهامة فطردوا رسله وضربوهم فبلغ ذلك حجرا فسار إليهم فأخذ سرواتهم وخيارهم وجعل يقتلهم بالعصا فسموا عبيد العصا. المبرد، الكامل في اللغة، جـ ١، ص ٧١. لسان العرب، جـ ١٥، ص ٦٦، صفوت، جمهرة خطب العرب، جـ ١، ص٧٩.

٦- يقصد أن العرب تنكح إماء الروم فتستعمل عليكم أولاد الإماء، وهم من بني العرب وهم سود ومن بني الروم وهم بيض، ولم تكن العرب قبل ذلك تنكح الروم إنما كان إماؤها سودانا، والعرب تقول: أتاني الأسود والأحمر يعني العرب والعجم، ولم يرد أن أولاد الإماء من العرب بقع كبقع الغربان، وأراد أنهم أخذوا من سواد الآباء وبياض الأمهات. لسان العرب، جـ ٨، ص ١٧

٧- الشؤم والشر. لسان العرب، جـ ٥، ص ٨٦.

٨- الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ٢، ص٩٤

كانت خلافة عمر بن عبد العزيز علامة فارقة في تاريخ بني أمية، فقد تناولها الجاحظ بكثير من الإعجاب، فقد أشار إلى عمر بن عبد العزيز عندما تولى الخلافة أنه غطى الأجزاء المزخرفة من الجامع عن الناس حتى لا يشغل الناس عن الصلاة "، فلما قام عمر بن عبد العزيز، **جلله[1] بالجلال[2]، وغطّاه بالكرابيس[3]، وطبخ سلاسل القناديل حتى ذهب عنها ذلك التلألؤ والبريق؛ وذهب إلى أن ذلك الصنيع مجانب لسنة الإسلام، وأن ذلك الحسن الرائع والمحاسن الدقاق، مذهلة للقلوب، ومشغلة دون الخشوع، وأن البال لا يكون مجتمعا وهناك شيء يفرقه ويعترض عليه"[4]** حيث يعد عمر بن عبد العزيز خامس الخلفاء الراشدين لما كان عليه من الزهد فعندما كان يكتب للشعب كان يضيء شمعة من بيت مال المسلمين وعندما كان يكتب أمورا خاصة به كان يضيء شمعة من ماله[5].

وفي الوقت نفسه أظهر الجاحظ إعجاب عمر بن عبد العزيز بالبيان " وسمع عمر بن **عبد العزيز رضي الله عنه رجلا يتكلم فأبلغ في حاجته، فقال عمر: هذا والله السحر الحلال"[6]** كما أن الخطبة التي أوردها الجاحظ على لسان أبو حمزة في معاوية وبني أمية وأشار فيها إلى أبي حمزة سكت عندما جاء على عمر بن عبد العزيز " **فلما انتهى إلى عمر بن عبد العزيز أعرض عنه، ولم يذكره"[7]**. فتناول الجاحظ لسيرة عمر بن العزيز منطلقا من المثل التي سار عليها الخليفة والتي ماثلت الحال زمن الخلفاء الراشدين.

ولعل موقف عمر بن عبد العزيز من أبناء علي بن أبي طالب - رضي الله عنه- يتجلى فيما ذكره الجاحظ عند قدوم عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب على عمر الذي أكرم وفادته[8] " **ولما قدم عبد الله بن الحسن بن الحسن رضي الله عنهم، على عمر بن عبد العزيز- رضي الله عنه- في حوائج له، فلما رأى مكانة بالشام، وعرف سنه وسمته وعقله، ولسانه، وصلاته**

١- غطّاه. لسان العرب، جـ ٧،ص ٣١٨

٢- السعف. لسان العرب، جـ ٩،ص ٢٦٩

٣- القطن. لسان العرب، جـ ٦،ص ١٩٥.

٤- الجاحظ، الحيوان، جـ ١، ص ٣٤.

٥- ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي(ت: ٥٩٧هـ / ١٢٠٠م). مناقب أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز، تقديم سعيد اللحام، مكتبة الهلال، بيروت: ٢٠٠٣م، ص ٧٥ (سيشار إليه فيما بعد: ابن الجوزي، مناقب عمر بن عبد العزيز).

٦- الجاحظ، رسالة صناعة القواد، ص ٣١٤

٧- الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ٢، ص٩٤

٨ - قدم عبد الله بن الحسن على عمر بن عبد العزيز وكان له منزلة عنده، فقال له عمر: إنك لن تغنم غنيمة ولا يغنمها أهلك خير من نفسك. فرجع عبد الله فأتبعه حوائجه. البلاذري، أنساب الأشراف، جـ ٣، ص٨٤. الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، جـ ٩، ص ٤٣٣. ابن عساكر، تاريخ دمشق، جـ ٢١، ص ٧

وصيامه، فلم يكن شيء أحب إليه من ألا يراه أحد من أهل الشام، فقال له: إني أخاف عليك طواعين الشام[1]؛ فإنك لن تغنم أهلك أكثر منك، فالحق بهم؛ فإن حوائجك ستسبقك إليهم"[2]. فقد خافوا عليه المقام في الشام. كما اتصف عبد الله بن الحسن بالبيان وحسن التدبير[3].

تولى هشام بن عبد الملك الخلافة فاهتم بترسيخ الأمن في الولايات الإسلامية كافة، وازدهرت في عصره الحضارة الإسلامية ووصلت إلى مستوى من التقدم في شتى المجالات[4]، واشتهر عهده بازدياد الاهتمام بالعلماء وتم إنشاء المزيد من دور العلم والمدارس التخصصية ودور العبادة كما ازدهرت فنون العمارة الأموية الإسلامية المميزة للعهد الأموي حيث تميزت ببناء القصور والحصون التي انتشرت في دمشق والشام وأرجاء البلاد الإسلامية. وعلى الرغم من أن هشاماً كان إدارياً مقتدراً لكن الجاحظ لا يذكر عنه شيئاً إلا النزر اليسير عندما وقف هشام على نهر الفرات قال: **" ووقف هشام بن عبد الملك على الفرات، ومعه عبد الرحمن بن رستم[5]، فقال هشام: ما في الأرض نهر خير من الفرات! فقال عبد الرحمن: ما في الأرض نهر شر من الفرات، أوله للمشركين، وآخره للمنافقين"[6].** وهذه الرواية التي لم نجد لها تفسير، تحمل دلالات سياسية حول وقوع بعض الأقاليم شمال العراق على حدود البلاد الإسلامية وما يحتمل ذلك من الصراع بينهم.

ثم تولى الخلافة يزيد بن الوليد بن عبد الملك، عندما بايعه الناس جاءه خبر بتلكؤ ابن عمه مروان بن محمد في مبايعته فأرسل إليه **" بسم الله الرحمن الرحيم. من عبد الله أمير المؤمنين يزيد بن الوليد، إلى مروان بن محمد. أما بعد فإني أراك تقدم رجلا وتؤخر أخرى، فإذا أتاك كتابي هذا فاعتمد على أيهما شئت. والسلام "[7]**، حيث عد الجاحظ صنيعه هذا دليل على أصالة الرأي، وعلى تمام النفس، وعلى الصلاح والكمال[8]

١- كانت الشام كثيرة الطواعين ثم تمتد إلى العراق وأول طاعون وقع في الشام في الإسلام طاعون عمواس وذلك في زمن عمر بن الخطاب وفيه مات معاذ بن جبل وأبو عبيدة بن الجراح رضى الله عنهما ثم الجارف ثم طاعون العذارى ثم طاعون الأشراف. الثعالبي، ثمار القلوب، جـ ١، ص ٥٤٦.

٢- الجاحظ، الحيوان، جـ ٤، ص ٧٣.

٣ - المصدر نفسه، جـ ٣، ص ٢٢٦.

٤- الطبري، تاريخ، جـ ٤، ص ١١١. ابن الأثير، الكامل، جـ ٢، ص٣٩٤.

٥- لم نعثر على ترجمة هذا الشخص، وهذا ليس عبد الرحمن بن رستم مؤسس الدولة الرستمية في المغرب بسبب البعد الزمني والمكاني بينهما. فالجاحظ كثيراً ما يذكر شخصيات غير معروفة.

٦- الجاحظ، الحيوان، جـ ٤، ص ١٢٣

٧- الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ١، ص ٢٤٩

٨- المصدر نفسه، ص ٢٤٩

كما أورد الجاحظ شعر أبي العباس الأعمى[1] الذي قاله في مروان بن محمد أخر خلفاء بني أمية:

" آمت نساء بني أمية منهم .... وبنوهم بمضيعة أيتام

نامت جدودهم وأسقط نجمهم ... والنجم يسقط والجدود تنام

خلت المنابر والأسرة منهم ...... فعليهم حتى الممات سلام"[2]

لقد تبدلت مواقف الجاحظ السياسية تجاه بني أمية نتيجة لتغير الظروف والأحوال التي عاشها، إذ عاصر ما يقرب من أحد عشر من الخلفاء العباسيين، فكان الجاحظ لسان حال السلطة العباسية، يتجه حسب ما تتجه له السلطة سواء كان قبولا وترضي من جماعة أم فرقة أم كان عداء ونفورا من جماعة أخرى. فكان ولاؤه مع ولاء السلطة العباسية، فنتج عن ذلك تبدل مواقف الجاحظ السياسية. فنجده مثلا في رسالة النابتة يصف خلفاء بني أمية بالفسق والكفر **" وقد كانت هذه الأمة لا تجاوز معاصيها الإثم والضلال، إلا ما حكيت لك عن بني أمية وبني مروان وعمالها، ومن لم يدِنْ بأكفارهم، حتى نجمت النوابت، وتابعتها هذه العوام، فصار الغالب على هذا القرْن الكفر، وهو التشبيه[3] والجبر[4]، فصار كفرهم أعظم من كُفر من مضى في الأعمال التي هي الفسق، وصاروا شركاء من كفر منهم، بتوليهم وترك إكفارهم"[5]** إن تهمة التشبيه والتجسيم للشيعة كانت موجودة في القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي، فمنذ أن راج وطفح كيله مجه الناس، فاتهمت به السلطة معارضيها، أي صارت هذه التهمة تعلق على من تريد السلطة التخلص منه[6].

---

١ - مولى بني جذيمة بن عليّ بن الديل: سمع عبد الله بن عمرو بن العاص، وكان منحرفا عن آل أبي طالب مائلا إلى بني أمية مادحا لهم. توفي أبو العباس الأعمى بعد ست وثلاثين ومائة. الحموي، معجم الأدباء، جـ ٣، ص ٣٤٤. الكتبي، الوافي بالوفيات، جـ ٢، ص ٤١.

٢- الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ٣، ص ٢٣٢

٣- المشبهة هي طائفة من الطوائف الإسلامية التي شبهت الله بخلقه، ووصفته بأنه يشبه المخلوقات، أول من قال بالتشبيه هم البيانية، وهي فرقة من غلاة الروافض، وأول من نشر التشبيه في الأمة هو هشام بن الحكم الشيعي. البغدادي، الفرق بين الفرق، ص ٢١٤، الشهرستاني، الملل والنحل، جـ ١، ص ١٠٨

٤- الجبر هو نفي الفعل حقيقة عن العبد وإضافته إلى الرب، والجبرية أصناف فالجبرية الخالصة لا تثبت للعبد فعلا ولا قدرة على الفعل بالأصل، وأما الجبرية المتوسطة فتثبت للعبد قدرة غير مؤثرة. البغدادي، الفرق بين الفرق، ص ٣٢٨، الشهرستاني، الملل والنحل، جـ ١، ص ٨٥

٥- الجاحظ، رسالة في النابتة، ص٢٤١.

٦- ابن رجب، عبد الرحمن بن أحمد (ت: ٧٩٦هـ / ١٣٩٣م). ذيل طبقات الحنابلة، دار المعرفة، بيروت: ١٩٥٢م، ص ١١١ (سيشار إليه فيما بعد: ابن رجب، ذيل طبقات).